

<http://arab-unity.net/forums/index.php>

منتديات
الوحدة
العربية

دخول



المركز القومي
للحفظ والتوثيق
والأرشيف
والعلم

اليهودي للإيهودي



ترجمة: ماهر الإكيلي

المحقق دويتشر

اليهودي اللايهودي

اسحق دويتشر

اليهودي اللايهودي

شُرِّحَتْ
مَاهِرٌ كِيَالِي

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

تقديم اسحق دويتشر (١٩٠٧ - ١٩٦٧)

قامت شهرة اسحق دويتشر في البدء كشاعر ينشر قصائده في المجلات الادبية البولندية وهو في السادسة عشر من عمره . فشعره الاولي، والذي لا يزال يذكره جمهور متفرق من القراء ، له اصداء قوية في التأمل الباطني اليهودي ، وموضوع التاريخ والميثولوجيا اليهودية ، وفي صهر الرومانسية البولندية بالفلوكلور الغنائي اليهودي في محاولة لردم الهوة بين الثقافة البولندية واليديشية . وقام دويتشر ايضاً بترجمة الكثير من الاشعار من العبرية واللاتينية والالمانية واليديشية إلى البولندية .

ولقد استمع ، كطالب منتسب ، إلى محاضرات حول الأدب والتاريخ والفلسفة في جامعة ياغلون في كاراكو . واصبحت الليالي التي يخصصها لقراءة شعره مشهورة في الحياة الفنية والثقافية في المدينة البولندية .

وفي سن الثامنة عشرة ترك كاراكو متوجهاً الى وارسو ، وترك الشعر وانصرف للنقد الادبي ونحو دراسات أكثر تعمقاً في الفلسفة والاقتصاد والماركسية . وحوالي عام ١٩٢٧ انضم الى الحزب الشيوعي البولندي المحظور ومرعان ما أصبح رئيساً لتحرير المجلات والصحف الشيوعية السرية وشبه-

السرية . وفي عام ١٩٣١ سافر متجولاً في الاتحاد السوفياتي ليتعرف بالظروف الاقتصادية للبلد في ظل خطة السنوات الخمس . ورفض دويتشر المنح التي قدمت اليه لتسلم مناصب أكاديمية في جامعتي موسكو ومينسك كاستاذ لتاريخ الاشتراكية والنظرية الماركسية . وفي السنة التالية طرد من الحزب الشيوعي . كان السبب الرسمي لطرده انه « هول من خطر النازية ونشر الرعب في الصفوف الشيوعية » . بعد عودته من الاتحاد السوفياتي سرعان ما أسس مع ثلاثة أو أربعة من رفاقه أول معارضة معادية للستالينية والحزب الشيوعي البولندي . واحتجت مجموعته على خط الحزب الذي لا يعتبر الاشتراكية الديمقراطية والنازية « نقيضين بل توأمين » . وطرد رئيس التحرير من الحزب ، وحرم من العودة اليه عندما ظهرت الصحف الشيوعية السرية تحمل في عناوينها « خطر البربرية على أوروبا » ، ومنذ ذلك اليوم طارده رجلا بوليس سريان : احدهما يعمل لحساب البوليس البولندي والآخر متطوع من احدى خلايا الحزب الستاليني .

في نيسان من عام ١٩٣٩ غادر اسحق دويتشر وارسو قاصداً لندن كمراسل لصحيفة بولندية يهودية تعاقدت معه لمدة اربع عشرة سنة ليعمل كمدقق مصحح . وكان قيام الحرب من حسن حظه اذ انه انقطع عن تحصيل معاشه . ورفضت احدى الصحف اليديشية اللندنية تشفيبه مما اجبره على بذل اقصى طاقاته لتعلم اللغة الانجليزية . كان يكتب أول مقال له وهو محوط بالمعاجم وكتب قواعد اللغة والنصوص وأرسل المقال الى مجلة الايكونوميست التي نشرته في الاسبوع التالي . ومنذ ذلك الوقت وهو يكتب للمجلة بانتظام .

وفي عام ١٩٤٠ التحق اسحق دويتشر بالجيش البولندي في سكوتلاندا ولكنه قضى معظم حياته هناك في معسكرات التأديب كعنصر « خطر وهدام » كجواب على احتجاجاته المستمرة ضد المعاداة للسامية المتفشية في ذلك الجيش . وفي عام ١٩٤٢ تم الافراج عنه وانضم الى هيئة تحرير مجلة الايكونوميست (The Economist) واصبح خبيرها في الشؤون السوفياتية ، ومعلقها

العسكري ورئيس المراسلين الاوروبيين . وانضم ايضاً الى هيئة تحرير الاوبزرفر التي أصبح مراسلها المتجول في اوروبا . وكان يكتب فيها تحت اسم مستعار وهو برغرين (Peregrine) .

في عام ١٩٤٦-٤٧ ترك العمل الصحافي المنتظم واتجه نحو عمل اكثر ديمومة . وقام في عام ١٩٤٩ بنشر كتابه « ستالين » وهو دراسة عن سيرة حياة ستالين السياسية . ووصف هذا الكتاب على انه « اكثر دراسة مثيرة للجدل لسيرة حياة في عصرنا الحاضر » وظهر في عدة طبعات وبلغات عديدة . واحتوت طبعة عام ١٩٦٧ الموسعة على ملحق عن السنوات الأخيرة من حياة ستالين .

ادى نشر كتاب « ستالين » الى الاعتراف بدويتشر كخبير في الشؤون السوفياتية ومؤرخ للثورة الروسية . ووطدت ثلاثيته عن تروتسكي - النبي المسلح ١٩٥٤ ، النبي الاعزل ١٩٥٩ ، النبي المضطهد ١٩٦٣ - شهرته كشخص متملك لخاصية النشر الانجليزي . لقد ارتكزت دراسته عن حياة تروتسكي الى دراسة مستفيضة لارشيفات تروتسكي في جامعة هارفارد . واعتبرت المواد التي تضمنها الجزء الثالث فريدة من نوعها ، ذلك ان دويتشر حصل على اذن خاص من ارملة تروتسكي يخوله حق القراءة في الفصل المغلق من الارشيف والتي طلب تروتسكي ان يبقى مغلقاً حتى نهاية هذا القرن .

كان مخطط دويتشر يقضي بأن يختتم سلسلة ترجماته عن حياة الشخصيات بدراسة عن لينين . وكثيراً ما اعرب عن امله بأن ينظر الى مؤلفاته الشخصية على انها كلها « مقال فريد بحال ثورة عصرنا الحاضر تحليلاً ماركسياً وايضاً كتلايه ذات وحدة فنية » .

كان دويتشر يحاضر في جامعة كمبردج عام ١٩٦٦ - ٦٧ في جمهور كبير وكان يكافأ باهتمامهم الشديد واستجابتهم الدافئة . وصادفه نفس الامتاج عندما مكث ستة اسابيع في كلية هاربر بجامعة ولاية نيويورك ، وكذلك عندما حاضر في جامعات برنستون ، هارفارد وكوليبيا في ربيع عام ١٩٦٧ . ولقد

ظهرت مجموعة المحاضرات التي القاها في جامعة كمبردج تحت عنوان « الثورة غير المنتهية » (The Unfinished Revolution) في أربعة عشر بلداً في آن معاً ، ولكن على الرغم من صدور كتبه في طبعات عديدة وترجمتها الى لغات عديدة فانها لم تنشر ، حتى الآن ، في أي بلد من بلدان الكتلة السوفياتية . ومع ذلك فهناك دليل على أنه يحظى بعدد وافر من القراء الجريئين والمخلصين .

كان دويتشر خطيباً ساحراً ومتحدثاً يمتلك قوة اقناع عظيمة وغالباً ما خاطب جمهوراً غفيراً على جانبي الاطلنطي . وفي عام ١٩٦٥ شارك في ندوة جامعية عن فيتنام حيث تجمهر ١٥ الف طالب للاستماع الى محاكمته وادانته للحرب الباردة .

لقد كان اسحق دويتشر يتمتع بجموية مذهلة ، فعلى الرغم من انشغاله بمفرده بعمل تأليف ضخم فقد بقي يلاحق مسار الاحداث باهتمام وشغف . وبقيت تحليلاته للاحداث السياسية الدولية تقرأ في الصحف الرئيسية لمدة ١٤ عاماً في اوروبا والولايات المتحدة وكندا واليابان والهند وامريكا اللاتينية .

وبقي يعمل حتى آخر يوم من حياته . وتوفي في روما في ١٩ آب ١٩٦٧ .

تمارا دويتشر

اليهودي اللايهودي

ثمة مثل للمودي قديم يقول « يبقى اليهودي يهودياً حتى لو ارتكب معصية » . تفكيرى الخاص ، بالطبع ، يتخطى فكرة « الخطيئة » أو « عدم الخطيئة » ولكن هذا المثل اعاد إلى ذهني ذكرى تعود الى ايام الطفولة ربما لا تكون مرتبطة بموضوعي .

اذكر أنني عندما كنت كطفل اقرأ « المدراس » - التفسير اليهودي للتوراة - مررت بقصة ووصف لمنظر استحوذ على تخيلتي ، إنها قصة الحاخام مايير ، القديس العظيم والحكيم ، وقطب المعتقد الموسوي الأصيل ، والذي تلقى دروساً في اللاهوت على يد أسد علماء الدين المرطقة وهو اليسع بن ايوب المدعو آكر - الغريب - . فقد حدث في يوم سبت ان الحاخام مايير كان مع استاذه وسرعان ما اشتبكا كمادتها في جدال عميق . كان المرطوقي يركب حماراً والحاخام مايير يمشي بجانبه وهو يصفي بانتباه شديد لكلمات الحكمة التي تنطلق من شفهي المرطوقي حتى انه فات هو واستاذه انها قد وصلا الى الحدود الدينية التي لا يسمح لليهود باجتيازها في يوم السبت . والتفت المرطوقي صوب تلميذه وقال : « ها قد وصلنا الحدود - علينا ان نفترق الان ، عليك ان لا ترافقني بعد هذا - هيا عد » !! ورجع الحاخام مايير إلى الطائفة اليهودية بينما اجتاز المرطوقي متعدياً الحبي اليهودي .

* إستعملنا ترجمة (Non - Jewish) بالمعنى المقصود هنا بكلمة « لا يهودي » عوضاً عن « غير يهودي » . (المترجم) .

كان في هذا المشهد ما يكفي ليحير طفلاً يهودياً متديناً . وتساءلت ، لماذا ياخذ الحاخام مايير وهو المشرق بعقيدته الدينية السليمة دروسه عن هذا الهرطوقي ؟ لماذا يظهر له قسندراً كبيراً من التعلق ؟ لماذا يدافع عنه في وجه الحاخامين الآخرين ؟ ويبدو ان قلبي كان مع الهرطوقي . فمن يكون هذا الرجل ؟ كان يبدو انه من اليهودية وبنأى عنها ايضاً .. كان قد أبدى احتراماً عجبياً لتمسك تلمیذة بعقيدته عندما أعاده إلى اليهود في يوم السبت المقدس ولكنه ، هو نفسه ، لم يلق بالأل للشریعة والطقوس الدينية فسارمتجاوزاً الحدود . عندما كنت في الثالثة عشرة أو ربما في الرابعة عشرة من عمري بدأت بكتابة مسرحية حول أكر والحاخام مايير وحاولت ان اكتشف المزيد عن شخصية آكر . ما الذي جعله يتجاوز اليهودية ؟ هل كان روحانياً ؟ ام انه كان من المتشيعين لمدرسة أخرى من مدارس الفلسفة اليونانية أو الرومانية ؟ لم استطع إيجاد الاجوبة ولم اعمل على تجاوز المشهد الاول .

ان الهرطوقي اليهودي الذي يتجاوز يهوديته ينتمي إلى تقليد يهودي . ويمكنك ، إذا رغبت ، ان تنظر إلى آكر كشبيه للثوريين المظالم في الفكر الحديث امثال اسبينوزا، هاين ، ماركس ، روزا لوكسبرغ، تروتسكي وفرويد . ويمكن لك ان رغبت ان تضمهم ضمن تقليد يهودي فجميعهم تخطوا حدود اليهودية لأنهم وجدوها ضيقة ومقيدة الى ابعد الحدود وقد اكل عليها الدهر وشرب . لقد تطلع جميعهم الى مثل والحجازات تتخطاها ، فهم يمثلون حصيلة وجوهر كل ما هو عظيم في الفكر الانساني ، حصيلة وجوهر أعمق التغييرات التي حدثت في الفلسفة ، علم الاجتماع ، الاقتصاد ، وعلم السياسة في القرون الثلاثة الاخيرة .

هل هناك شيء مشترك يجمع فيما بينهم ؟ وهل من المحتمل أن يكون تأثيرهم العظيم في المكر البشري منبثقاً من « عبقريتهم اليهودية » الخاصة ؟ أنا لا أؤمن بعبقرية محصورة بعرق أو بسلالة . ومع ذلك فقد احتفظ هؤلاء بيهوديتهم بصورة

أو بأخرى وامتلكوا في ذواتهم شيئاً من جوهر الحياة اليهودية وفطنتها . كانوا في هذا يشكلون نوعاً من الاستثناء كيهود عاشوا على تخوم مدنات وديانات وحضارات متعددة الاشكال . لقد ولدوا ونشأوا على تخوم عهود مختلفة ونضجت عقولهم حيناً تلاقحت أكثر التأثيرات الحضارية تبايناً وغذى بعضها بعضاً . لقد عاشوا على الهوامش أو في الزوايا المظلمة لشعوبهم وكان كل منهم في المجتمع ولكنه خارجه أيضاً ومن المجتمع وليس منه أيضاً . لقد مكنتهم هذا الأمر من الارتفاع بفكرهم فوق هذه المجتمعات ، فوق أهمهم وفوق عصورهم واجيالهم وان يجولوا في عقولهم آفاق عريضة جديدة وبمبدأ نحو المستقبل .

واعتقد ان الذي كتب سيرة حياة اسبينوزا ، وهو بروتستانتى انجليزى ، كان قد قال ان اليهودي فقط ، هو الذي يستطيع ان يحدث ثورة في فلسفة عصره وهذا ما فعله اسبينوزا وهو يهودي متحلل من جمود الكنائس المسيحية ، الكاثوليكية والبروتستانتية ، ومن الايمان بدينه الذي اعتنقه يوم مولده . أما ديكارت وليبنيز Leibnitz فلم يستطيع أي منها ان يتخلص بنفس المدى ، من تقاليد مدارس القرون الوسطى في حقل الفلسفة .

نشأ اسبينوزا في ظل التأثيرات القائمة في اسبانيا ، هولاندا ، المانيا ، انجلترا ، وايطاليا عصر النهضة - فساهمت جميع التيارات الفكرية العاملة في ذلك الوقت في تشكيل عقله . وكانت هولندا موطنه الاصلي على اعتبار ثورة برجوازية . وكان اجداده من المارانيم Maranim ، وهم مزيج من الشعبين الاسباني والبرتغالي ومن الذين كانوا يهودا بالسر ، يكتنون لليهودية محبة قلبية ولكنهم اضطروا كالعديد من اليهود الاسبانيين وبسبب اكراه محاكم التفتيش الى اعتناق المسيحية . وبعد ان جاءت عائلة اسبينوزا الى هولندا ، أسفر افرادها عن معتقدهم الحقيقي وأعلنوا أنهم من اليهود ، ولكنهم لم يكونوا

بالطبع لاهم ولا احفادهم بغرباء عن الاجواء الثقافية للمسيحية .

وعندما ظهر اسبينوزا كمفكر حر في البدء ثم كخبير في النقد الحديث للكتاب المقدس تفهم على الفور التناقض الرئيسي في اليهودية ، وهو التناقض بين الآلهة التوحيدى والعالمى من جهة وبين الوضع الذى يظهر فيه الله في الديانة اليهودية- كآله ملازم لشعب واحد فقط ، أى التناقض بين الآله العالمى « وشعبه المختار » . ونحن نعرف ان ادراك اسبينوزا لهذا التناقض قد أدى الى طرده من الطائفة اليهودية وحرمانه من العودة إليها . وكان عليه ان يحارب الكهنة اليهود الذين كانوا ضحايا محاكم التفتيش ولكنهم اصبحوا فيما بعد مفعمين بروح هذه المحاكم ، ثم كان عليه ان يواجه خصومه رجال الدين الكاثوليك والقساوسة البروتستانت . لقد أمضى حياته في النضال من أجل تحطى حدود الديانات والحضارات في عصره .

ولقد تعرض عدد من عظماء المفكرين اليهود لتناقضات الديانات المختلفة وانجذبوا نحو اتجاهات مختلفة بفعل التأثيرات والضغط المتناقضة ، فاصبح من الصعب عليهم ايجاد توازن روحاني في نفوسهم مما أدى إلى تفككهم . وكان بين هؤلاء يوريل اكوستا (Uriel Acosta) الذى كان سابقاً لاسبينوزا وأكبر منه سناً . لقد احتج يوريل مرات عديدة ضد اليهودية ، وكان في كل مرة ، يتنكر لاحتجاجاته . وكثيراً ما حرمه الحاخاميون ولكنه سرعان ما كان يحشو أمامهم على أرض الكنيس في امستردام ، طالباً منهم الصفع عنه . أما اسبينوزا فقد كان على عكسه تماماً يشعر بسعادة فكرية عظيمة عندما كان قادراً على أن يوفق بين التأثيرات المتضاربة ويخلق منها منظاراً أسمى وفلسفة متكاملة يطل من خلالها على العالم الخارجى .

وفي كل جيل من الاجيال تقريباً ، وحيثما كان المثقف اليهودى يخوض نضالاً مع ذاته ومع مشاكل عصره نجد أن شخصاً ما ، مثل يوريل اكوستا ، ينهار من

العبد الملقى عليه ، بينما نجد شخصاً آخر مثل اسبينوزا يجعل من هذا العبد اجنحة للعظمة . وكانت علاقة هاين بماركس - تلميذ اسبينوزا - فيما بعد كعلاقة اكوستا باسبينوزا .

كان هاين متنقلاً بين المسيحية واليهودية وبين فرنسا والمانيا وتضاربت في موطنه ، حوض الراين ، تأثيرات الثورة الفرنسية والامبراطورية النابليونية مع تأثيرات الامبراطورية الرومانية المقدسة القديمة في المانيا القيصرية . نضج هاين من خلال حلقات الفلسفة الكلاسيكية الالمانية وحلقات افكار الجمهوريين الفرنسيين . وكان يرى في كانت (Kant) شبيهاً بروبسيير وأما فخته (Fichte) فقد كان في نظرة نابليون في عالم الروح . هكذا يصفهم في احدى اعشق المقطوعات (*) التي كتبها واشدها اثارة . وفي سنواته الاخيرة أصبح على اتصال بالمذاهب الشيوعية والاشتراكية في فرنسا والمانيا واعجب بماركس وقابله بنفس العطف والاعجاب الذي قابل به اكوستا سبينوزا .

ونشأ ماركس بدوره في حوض الراين . وعندما تخلى والداه عن اليهودية لم يناضل مع الارث اليهودي كما فعل هاين . ولكنه بذل كل قوته في معارضة التخلف الاجتماعي والروحي في المانيا في تلك الحقبة . وقضى معظم حياته في المنفى حيث تشكل فكره منبثقاً من الفلسفة الالمانية والاشتراكية الفرنسية والاقتصاد السياسي الانجليزي . وتلاققت هذه التأثيرات المتنوعة في ذهن ماركس بشكل لم يحدث لأي مفكر في عصره واستطاع ان يسمو عليها ويستوعب خلاصة هذه التيارات الثلاثة ويتجاوز حدودها جميعاً .

واذا ما اقتربنا من عصرنا الحاضر نجد ان كلا من روزا لوكسمبرغ وتروتسكي وفرويد قد تشكلوا ذهنياً بدورهم وسط تيارات تاريخية متضاربة . وتمثل روزا لوكسمبرغ مزيجاً فريداً من الصفات الالمانية والبولندية والروسية ومن المزاج اليهودي . أما تروتسكي فقد كان تلميذاً في مدرسة لوتويه ثانوية المانية روسية تقع في اوديسا على اطراف امبراطورية القيصرية الروم . أما فرويد فقد

* وودت هذه المقطوعات في كتاب :

Zur Geschichte der Religion and Philosophie in Deutschland.

نضج عقله في فيينا في غربه عن اليهودية وفي فترة معارضته للنفوذ الاكبري
الكاثوليكي في السياسية في العاصمة النمساوية . لقد كانت الظروف الفعلية التي
عاشوا وعملوا فيها تشكل امراً مشتركاً فيما بينهم ، تلك الظروف التي لم تسمح
لهم بان يطوعوا انفسهم لافكار كانت محصورة دينياً وقومياً وحفزتهم للنضال
من اجل مجتمع عالمي .

لم تعد اخلاق اسبينوزا اخلاقاً يهودية بل اخلاق الانسان بصورة عامة -
تماماً كما لم يعد الله يهودياً ، لقد توحد الله بالطبيعة فافرز هويته الخاصة والمميزة
بصورة رائعة ومع ذلك بقي باخلاقه والله ، بطريقة ما ، يهودياً لولا انه ذهب
بوحدانية الله واخلاقه إلى نتيجتها المنطقية فبلغ بفكرة الاله الكوني مداها
الاقصى ، وفي اللحظة التي بلغ فيها المدى الاقصى ، كف هذا الاله عن كونه
يهودياً .

اما هابن فقد قضى حياته متعاركاً مع اليهودية وتميز موقفه منها بالتضارب
ممتزجاً بالكراهية والمحبة الشديدين معاً . لقد كان في هذا المقام أقل شأناً من
اسبينوزا الذي لم يصبح مسيحياً على الرغم من نبذ اليهود له . لم يكن هابن يمتلك قوة
اسبينوزا العقلية والشخصية . فعلى الرغم من انه عاش في مجتمع يمر بالعقود الاولى
من القرن التاسع عشر إلا ان هذا المجتمع كان أشد تحلفاً من مجتمع الماني في القرن
السابع عشر . وعلق آماله في البدء على التحرير الوهمي لليهود . وقد عبر موسى
موندلسون (Moses Mendelsohn) عن هذا التطلع بقوله : « كن يهودياً
في داخل بيتك ورجلاً في الخارج » . كان التخوف من هذا التطلع الالماني -
اليهودي ليس إلا نوعاً من الليبرالية التافهة للبرجوازية الالمانية غير اليهودية . ذلك
ان الليبرالي الالماني كان « رجلاً حراً » في داخل بيته « واكثر الرعايا اخلاصاً في
الخارج » . ما كان هابن ليرضى بهذا طويلاً فتغلى عن يهوديته واستسلم للمسيحية
ولكنه بقي في داخله غير راض عن تحليه وتحوله . أما رفضه للعقيدة اليهودية
فانه يشاهد في جميع اعماله . فهو يقول على لسان دون اسحق موجهاً كلامه الى

الحاخام فون باخراش Bachrach : « لا أستطيع ان اكون واحداً منكم . وأنا أحب طعامكم بشكل يفوق كثيراً حيي لديانتكم . كلا ، لا أستطيع ان اكون واحداً منكم وأظن اني في احسن الاوقات ، في ظل حكم الملك داوود ، كنت على الأرجح سألجأ الى الفرار بعيداً عنكم ، متوجهاً الى المعابد الاشورية والبابلية المفعمة بالحلب ومرح الحياة » .

كان ماركس أصغر من هاین بعشرين عاماً ومع ذلك فقد تغلب على المشكلة التي واجهت هاین . وامسك بها بأحكام مرة واحدة فقط وكان هذا في مؤلفه الشهير Zur Judenfrage وكان هذا رفضه غير المتحفظ لليهودية . وقد تعرض بسببها لهجرات عنيفة من قبل المدافعين عن العقيدة اليهودية وعن القومية اليهودية واتهم بأنه « معاد للسامية » . مع ذلك ، فاني اعتقد بان ماركس قد أصاب جوهر القضية عندما قال بان اليهودية عاشت « لا على الرغم من التاريخ بل فيه ومن خلاله » . أي انها مدينة في بقائها للدور المميز الذي قام به اليهود كوسطاء للاقتصاد النقدي في بيئات عاشت في اقتصاد طبيعي ، أي ان اليهودية كانت بالضرورة خلاصة نظرية لعلاقات السوق ولولاء التاجر ، وان أوروبا المسيحية ، في تطورها من الاقطاعية الى الرأسمالية ، أصبحت يهودية بمعنى من المعاني . لقد رأى ماركس المسيح كأنه « اليهودي المنظر » واليهودي وكأنه « المسيحي العملي » . ومن ثم فقد اعتبر ماركس المسيحي البرجوازي « العملي » « يهودياً » . ولما كانت اليهودية في نظر ماركس انعكاساً دينياً لطريقة البرجوازي في التفكير فقد رأى ان البرجوازية الأوروبية شبيهة باليهودية ولم تكن غايتها تحقيق المساواة بين اليهودي وغيره في مجتمع رأسمالي مُهوّد وانما تحرير اليهودي وغير اليهودي على السواء من الطريقة البرجوازية في الحياة ، أو كما يضعها هو بعبارة هيفلية محرضه وموهمة للتناقض « تحرير المجتمع من اليهودية » . لقد كانت فكرته عالية وهي كفكرة اسبينوزا التي سبقتها عدة ٢٠٠ سنة ، فكرة الاشتراكية والمجتمع الخالي من الطبقات .

ولم يكند يكون بين اتباع ماركس ومريديه أحد قريباً منه، روحاً ومزاجاً، بقدر ما كان تروتسكي وروزا لوكسمبرغ . وتظهر الصلة فيما بينهم من خلال الديالكتيكية المثيرة للعالم ولصراعاته التطبيقية ومن خلال ذلك الانسجام الفريد في الأفكار والمشاعر والخيال مما اكسب لغتهم وأسلوبهم وضوحاً خاصاً وكثافة وغنى . لقد ناضل كل من روزا لوكسمبرغ وتروتسكي مع رفاقها من غير اليهود من أجل حلول شاملة كبديل للحلول الخاصة ومن أجل حلول عالمية كبديل للحلول القومية لمشاكل عصرهم . وعملت روزا لوكسمبرغ على تجاوز التناقض بين الاشتراكية الألمانية الاصلاحية وبين الماركسية الروسية الثورية فارادت ان تطعم الاشتراكية الألمانية بشيء من الحركة الثورية الروسية والبولندية ومثالياتها ، بشيء من الرومانسية الثورية التي يمجدها لينين بقوة ، وحاولت ان تزرع في بعض الاحيان تقاليد وروح الديمقراطية الغربية الأوروبية في الحركات الاشتراكية السريية في شرق أوروبا ولكنها فشلت في غايتها الرئيسية ودفعت حياتها ثمناً لذلك بيد انها لم تكن الوحيدة التي دفعت حياتها فباغتيالها احتفلت ألمانيا بآخر نصر لعائلة هوهن زولرن Hohenzollern واما ألمانيا النازية فسجلت انتصارها الاول .

لقد وضع تروتسكي صاحب الثورة الدائمة نصب عينه هدف الهاب ثورات على نطاق عالمي بقصد اعادة قولبة البشرية . وكان يشكل مع لينين أهم قادة الثورة الروسية وهو الذي أوجد الجيش الأحمر ولكنه دخل في صراع مع الدولة التي ساعد على خلقها عندما رفعت هذه الدولة وقادتها شعار الاشتراكية في بلد واحد . فلم يكن يرضى بتحديد الرؤية الاشتراكية ضمن حدود دولة واحدة .

كان هؤلاء الثوريون العظام ذوي تركيب هش جداً اذ كانوا بسبب يهوديتهم ، دون جذور . لكنهم كانوا يمتلكون اعق الجذور في التقاليد لثقافية وفي التطلعات النبيلة لعصرهم . وعلاوة على ذلك فحيثما يسود التعصب

الديني أو الاحساس القومي وحيثما تنتصر المفاهيم الضيقة الأفق فانهم يكونون كبش الفداء . لقد حرّمهم الحاخاميون من العودة لليهودية ، واضطهدهم القساوسة المسيحيون ، وتعرضوا للملاحقة شرطة الحكام المستبدين ولكراهية غير المثقفين من مدعي الديمقراطية واخيراً طردوا من الاحزاب التي انضموا اليها . لقد ابعد معظمهم ، تقريباً ، خارج بلادهم واحرقت كل كتاباتهم . ولم يكن بالامكان ذكر اسم اسبينوزا بعد وفاته ، لمدة تزيد على القرن – وحتى ليبنتر الذي يدّين بكثير من افكاره لاسبينوزا لم يجرؤ على ذكره . وما زال اسم تروتسكي في روسيا خاضعاً للحرمان . وحتى عهد قريب ، كانت اسماء ماركس ، هاين ، فرويد وروزا لو كسمبرج محظورة في المانيا . ولكن انتصارهم كان مطلقاً ، فبعد أكثر من قرن تغلف فيه اسم اسبينوزا بالنسيان نجدهم قد شيدوا له نصباً تذكاريّاً واعتبروه أعظم نتاج للعقل البشري . وسبق لهردر ان قال : « اتنى لو أن جوته قرأ بعض الكتب اللاتينية بمعزل عن « اخلاقيات ، اسبينوزا » . وكان جوته متمقياً بالفعل في فكر اسبينوزا ، وقد وصفه هاين بحسب بانه « اسبينوزا الذي تخلص من غطاء صيغته الهندسية – الحسابية والمائل امامنا كشاعر غنائي » . وانتصر هاين نفسه على هتلر وجوبلز . وسيدقى الثوريون الآخرون الذين يسلكون هذا النهج وسيتصرون عاجلاً أو آجلاً على اولئك الذين عملوا بدون كلل لطمس ذكراهم .

وانه لمن البديهي جداً ان يكون فرويد منتبياً لنفس الخط الفكري . فمهما كانت مزايا وعيوب تعاليمه فانه تخطى قصور مدارس علم النفس المبكرة ، فالرجل الذي شخصه في تحليله لم يكن المانياً أو الإنجليزية أو روسياً أو يهودياً – انما هو الرجل العالمي الذي يتصارع فيه اللاوعي مع الوعي وهو الذي يشكل جزءاً من الطبيعة ومن المجتمع ، وهو الذي تكون تطلعاته ورغباته الشديدة ، حيرته

وكتبته ، قلقه وحالته متطابقة بالضرورة بغض النظر عن دينه وعرقه .
بالنسبة لهم ، كان النازيون على حق عندما قرنوا اسم فرويد بماركس واحرقوا
كتب الاثنين .

على أن ثمة مبادئ فلسفية معينة كانت تجمع بسين جميع هؤلاء المفكرين
الثوريين . فعلى الرغم من اختلاف فلسفاتهم من قرن لآخر ومن جيل لآخر فانهم
جميعاً ، من اسبينوزا حتى فرويد ، آمنوا بالاحتميات التاريخية وبأن هناك قوانين
كامنة في الكون هي التي تحكمه . فهم لا ينظرون إلى الحقيقة على انها مجموعة
احداث مختلطة بغير نظام أو ان التاريخ ليس إلا حشداً لتزوات أو اهواء
الحكام . ويقول فرويد ليس هناك شيء اتفاقي في احلامنا أو في حماقاتنا أو
حتى في هفوات السلنا . أما تروتسكي فيقول بان قوانين التطور تنعكس من
خلال الاحداث ، وهو قريب من اسبينوزا في قوله هذا .

انهم جميعاً يؤمنون بالاحتميات لانهم راقبوا مجتمعات عديدة ودرسوا عن
كتب ، العديد من « انماط الحياة » مما مكنتهم استيعاب القوانين الاساسية
للحياة . وكانت طريقتهم في التفكير دياكتيكية بسبب انهم عاشوا بين
أهم الديانات ورأوا المجتمع وهو في حالة تغير مستمر ، لذلك فهم يرون الحقيقة على
انها ديناميكية وليست ساكنة ، أما أولئك الذين ينغلغون في مجتمع واحد أو شعب
واحد أو دين واحد فانهم يميلون إلى التخيل بان طريقتهم في الحياة أو في التفكير
تكون دوماً صالحة وبصورة مطلقة وان كل ما يناقض مقاييسهم هو « غير طبيعي »
ووضيع واثم بطريقة أو باخرى . ومن جهة اخرى فان الذين يعيشون وسط
حضارات متعددة يدركون الحركة العظيمة وانتناقض العظيم في الطبيعة والمجتمع
بصورة أكثر وضوحاً .

ان جميع هؤلاء المفكرين متفقون على الأهمية النسبية للمعايير الاخلاقية فلا
يوجد فيهم من يؤمن بالخير المطلق أو بالشر المطلق . فلقد ادركوا التزام الجماعات

بالمعايير والقيم الاخلاقية المختلفة ، فما كان يعتبر خيراً بالنسبة لمحاكم التفتيش الكاثوليكية كان شراً بالنسبة لليهود الذين كان من بينهم جد اسبينوزا وجدته ، وما كان يعتبر خيراً للعاهلانيين واليهود السابقين كان شراً لاسبينوزا ذاته ، ولقد خبر ماركس وهابن في طفولتهما التضارب الكبير بين اخلاقية الثورة الفرنسية واخلاقية المانيا الاقطاعية .

وعلاوة على ذلك فقد كانت تجمع بين معظم هؤلاء المفكرين فكرة فلسفية عظيمة أخرى — وهي ان المعرفة كي تكون حقيقية لا بد لها ان تكون فعالة . وهذا ، بالمصادفة ، كان له مغزى في نظرتهم للأخلاق . فاذا كانت المعرفة غير منفصلة عن الفعل والتطبيق العملي والذي هو بطبيعته نسبي ومتناقض ذاتياً ، فالاخلاقية اذن ، وهي معرفة ما هو خير وما هو شر ، غير منفصلة ايضاً عن التطبيق العملي وهي ايضاً نسبية ومتناقضة ذاتياً . لقد كان اسبينوزا من قسائل « ان تكون هو ان تعمل وان تعرف هو ان تعمل ايضاً » وهسذه الجملة تبعد خطوة واحسدة فقط عن قول ماركس « لم يقم الفلاسفة حتى الآن الا بتفسير العالم والمهمة من الآن فصاعداً هي تغييره » .

وختاماً فقد آمن كل هؤلاء المفكرين من اسبينوزا حتى ماركس بوحسدة الاهداف والمصالح البشرية وكان هذا مفهوماً ضمناً في مواقفهم من اليهودية. اننا نلتفت الآن بأفكارنا الى اولئك المؤمنين بالانسانية من خلال الضباب الدموي لعصرنا ومن خلال دخان غرف الغاز — التي استخدمها هتلر — ذلك الدخان الذي لن تقوى الرياح مها كانت عاتية على تبديده . لقد كان اولئك «اليهود اللاهود» متفائلين بالضرورة ، وبلغ تفاؤلهم اوجاً يصعب الوصول إليه في عصرنا . لم يتصوروا انه بإمكان اوروبا المتمدنة في القرن العشرين ان تفرق في اعماق البربرية بحيث تصبح « وحدة المصالح والاهداف الانسانية » خدعة شريرة في نظر اليهود . وكان هابن من بينهم جميعاً يدرك بحسده وبحسه الشاعرى ما

سيحدث عندما حذر أوروبا بأن تحترس من هجوم ضار للحكام الألمان القدامى وعندما تفجع لمصير اليهودي المعاصر المظلم ذلك المصير الذي يفوق الوصف والشمول . ان هذا المصير مفعج لدرجة انهم « سيدسخرون منك عندما تتحدث عنه ، وهذه هي الفاجعة الكبرى » .

ان هذا الهاجس لم يكن موجوداً عند اسينوزا أو ماركس . أما فرويد فقد تروح ، عقلياً ، في سنه المتقدمة ، أمام ضربات النازية . وأما تروتسكي فقد تلقى صدمة قوية حين وجد ان ستالين يستخدم ضده الروح اللاسامية القديمة . وكان تروتسكي قد رفض رفضاً باتاً المطالبة « بالاستقلال الثقافي » لليهود وهو ما طالب به الحزب الاشتراكي اليهودي (Bund) عام ١٩٠٣ . لقد فعل ذلك باسم وحدة أهداف ومصالح اليهود وغير اليهود في المعسكر الاشتراكي . وبعد ربع قرن من هذا تقريباً ، وبينما كان منشغلاً في صراع غير متكافئ مع ستالين ذهب تروتسكي الى خلايا الحزب في موسكو لشرح وجهة نظره فتوبل بفمزات قاسية ليهوديته وباتهامات لاسامية صريحة . وقد جاءت هذه الاتهامات من اعضاء في الحزب الذي قاده مع لينين اثناء نشوب الثورة وخلال الحرب الاهلية . لقد لجأ ستالين مرة أخرى وبشكل اكثر علانية وخطورة بعد ربع قرن من ذلك وبعد مذابح اليهود الشهيرة في اوستويتز وماجدنداك وبلسن ، الى التعريض باليهود .

ان ذبح النازيين لستة ملايين يهودي ، وهي من الحقائق الثابتة ، لم تحدث انطباعاً عميقاً في شعوب أوروبا ولم تهز ضمائرهم حقاً بل تركتهم غير مباليين تقريباً . فهل كان ايمان الثوريين اليهود المعظام المنفائل بالانسانية مبرراً ؟ هل ما زلنا قادرين على مشاركتهم ايمانهم بمستقبل الحضارة ؟

انني اسلم بأنه سيكون من الصعب ، بل ومن المستحيل ، ان يحاول احد الاجابة على هذه الاسئلة بطريقة ايجابية فيما اذا انطلقنا من منطلق يهودي

صرف. أما أنا فلا أستطيع ان اعالج القضية من منطلق يهودي بحت ، وجوابي هو : نعم ، ان ايمانهم له ما يبرره . وعلى اية حال فلقد كان مبرراً إلى مدى ايماننا بأن وحدة الاهداف والمصالح المشتركة والمطابقة للبشرية هي من الشروط الضرورية للحفاظ على الانسانية ولتطهير حضارتنا من بقايا البربرية الكامنة فيها والتي ما زالت تنفث سمومها .

فلماذا ترك مصير اليهود الاوروبيين شعوب اوروبا وغيرها من شعوب العالم بحالة من عدم المبالاة تقريباً ؟ لسوء الحظ ، كان ماركس أصوب نظراً منا عند ما ادرك موضع اليهود من المجتمع الاوروبي قبل وقت طويل من الموعد الذي ادركنا ذلك فيه . فالجزء الاساسي من المأساة اليهودية تكون نتيجة لتطورات تاريخية طويلة بحيث أصبحت الجماهير الاوروبية معتادة على تحديد هوية اليهودي بالتجارة والسمرة واقراض النقود والاثراء . وعليه فقد أصبح اليهودي بنظر العقل الشعبي ، رمزاً ومرادفاً لهذه الاعمال . فاذا ما بحثنا في قاموس اكسفورد الانجليزي وتابعدنا كيف يعطي المعنى الشائع لعبارة « يهودي » نجده يقول في البدء ، انه الشخص الذي ينتمي « للجنس العبري » ثم يقول عن الاستعمال العامي بانه « شخص ميال إلى ابتزاز الاموال ، أو قادر على عقسد صفقات يغبن فيها الطرف الآخر . ويقول المثل العامي « ثري كاليهودي » . وتستعمل الكلمة بالعامية كفعل متمم فقاموس اكسفورد يفسر كلمة « يهود » (To Jew) ، بانها تعني « يخدع أو يكرب » . ان هذا يمثل التصور العامي المؤلف لليهودي وهو في نفس الوقت اجحاف شائع يلحق به وهذا الشعور مثبت في لغات عديدة واعمال فنية عديدة لا تقتصر على اللغة الانجليزية أو تاجر البندقية فقط .

ومها يكن من أمر فان هذا ليس هو التصور المؤلف الوحيد لدى العوام . ففي احدي المناسبات - قبول روتشيد كاول يهودي في مجلس العموم البريطاني - دافع ماكولي عن حق اليهود بدخول مجلس العموم وكانت حجته في ذلك كما

يبي : اذا كنا قد سمحنا لليهودي بادارة شؤوننا المالية الخاصة بنا فلماذا لا نسمح له بالجلوس بيننا ، في البرلمان ، وان يكون له رأي في ادارة جميع شؤوننا العامة ؟ كان هذا صوت برجوازي مسيحي اتخذ نظرة جديدة نحو شايلوك* ورحب به كاخ .

انني اعتقد ان الذي مكن اليهود من البقاء كطائفة منفصلة هو انهم مثلوا نظام اقتصاد السوق بين ظهري شعب يعيش في اقتصاد طبيعي كما اعتقد أن هذه الحقيقة ، بذكرياتها لدى الشعب ، كانت مسؤولة ولو جزئياً عن عدم المبالاة التي أبدتها سكان اوروبا نحو اباداة اليهود . وكان من سوء حظ اليهود انه عندما تحولت شعوب اوروبا ضد الرأسمالية فعلت هذا بسطحية كبيرة ، وفي النصف الاول من هذا القرن فقط . وهي لم تهاجم جوهر الرأسمالية ، أو علاقاتها الانتاجية أو تنظيمها للملكية والعمل وانما هاجمت مظاهرها وزخارفها القديمة والبالية والتي كانت في الغالب يهودية . هذه هي النقطة الحاسمة في المأساة اليهودية . إن الرأسمالية العفنة تجاوزت زمنها وقادت البشرية الى منزلقات خلقية ! وقمنا نحن اليهود بدفع الثمن وربما كان علينا علاوة على ذلك ان ندفع المزيد .

نقد دفع هذا الامر اليهود الى أن يعتقدوا ان اقامة دولة خاصة بهم سيكون هو طريق الخلاص ، بينما رأى معظم الثوريين العظام الذين اعرض لميراثهم ، ان الحل المطلق لمشاكل عصرهم وعصرنا لا يكون في اقامة دول قومية وانما بالتطلع إلى مجتمع أممي . فهم بوصفهم يهوداً ، كانوا الرواد الطبيعيين لهذه الفكرة والافمن يكون اجدر من اليهودي بالدعوة إلى مجتمع المساواة الأممي الذي يزول فيه التعصب القومي والديني سواء كان تعصباً لليهود أو لغير اليهود ؟

لقد اجبر التحلل الدولة القومية الاوروبية اليهودي على اعتناق فكرة الدولة القومية . هذه العبارة الموهمة بالتناقض تشكل المأساة اليهودية ، ذلك أن الدولة

* شايلوك : شخصية تلعب دور اليهودي في مسرحية شكسبير « تاجر البندقية » . (م)

القومية في عصرنا الحاضر أصبحت تنطوي على مفارقة تاريخية وهي شيء بال .
ان هذا الكلام لا ينطبق فقط على دول اسرائيل بل يشمل الدول القومية في
روسيا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والمانيا وغيرها من الدول التي
تجاوزت زمانها . ليس من الواضح انه في وقت تختصر فيه الطاقة الذرية
حجم العالم كل يوم وفي وقت بدأ فيه الانسان رحلته بين الكواكب
السيارة واصبح الفم الصناعي يحلق فوق اراض أكبر دولة قومية في بضع
دقائق أو ثوان ، ليس من الواضح في مثل هذه الاحوال ان التكنولوجيا
جعلت من الدولة القومية مهزلة وامارة صغيرة من امارات عصر الآلة
التجارية ؟

سيكون من الصعب حتى على الدول القومية الفتيحة والتي برزت كنتيجة
لنضال ضروري وتقدمي خاضته الشعوب المستعمرة (فتح الميم) وشبه المستعمرة
كالهند ، بورما ، غانا والجزائر وغيرها من الدول ، سيكون من الصعب عليها
الاحتفاظ بطابعها التقدمي لمدة طويلة . ان هذه الدول تشكل مرحلة ضرورية
في تاريخ بعض الشعوب ولكنها مرحلة لا بد لهذه الشعوب من ان تتخطاها
ايضاً كي تجد اطارات ارحب لوجودها . وفي عصرنا الحاضر سرعان
ما تتأثر أية دولة قومية ، بعد تكوينها ، بالانحلال العام لهذا الشكل من
التنظيم السياسي . وهذا ما بدأ يظهر في التجارب القصيرة لكل من الهند
وغانا واسرائيل .

لقد دفع العالم باليهودي لان يمتنق فكرة الدولة القومية وان يجعلها فخره
وامله في وقت لم يبق فيه أمل بهذا النوع من الدول . ان الملامة تقع على العالم لا
على اليهودي . ولكن يبقى على اليهود ، على الأقل ، ان يدركوا ان اندفاعهم
الشديد « نحو التحرر القومي » جاء تاريخياً متأخراً . فهم لم يستفيدوا من
حسنات الدولة القومية في عصور كانت فيها هذه الدولة واسطة للتقدم وعاملاً
ثورياً وموحداً في التاريخ بل جاء امتلاكهم لها في وقت أصبحت تشكل فيه

عنصرأ من عناصر الفرقة وعدم التكامل الاجتماعي .

وانني آمل بأن يدرك اليهود ومهمهم امم أخرى ان الدولة القومية أصبحت غير ملائمة وآمل ان يجدوا طريقهم للرجوع الى الميراث الخلفي والسياسي لعباقرة اليهود الذين تخطوا يهوديتهم وتركوا لنا رسالة التحرير الانساني الشامل .

من هو اليهودي

ان مجرد الحاجة الى طرح سؤال : « من هو اليهودي » ؟ يبعث في نفسي شعوراً غريباً بأنني على وشك ان اناقش أحد المواضيع المتداولة في عدد كبير من الروايات من كافكا الى نيجل دنيس : هويات مفقودة أو اناس يصعب تحديد هويتهم .

كيف يمكن لأحد ان يتوقع من مفكر يهودي ان يحسده هويته بتقاليد العقيدة اليهودية البالية والمتزمته والمسلم بصحتها في وقت يرفض فيه العديد من المفكرين الطقوس الدينية والمحرمات والفرائض في أية ديانة من الديانات ؟ كنت احسب قبل ثلاثين عاماً ، وما زلت اعتقد بذلك جزئياً الآن ، ان سؤالاً مثل : « ما الذي يحدد هوية اليهودي ، المثقف اليهودي ؟ » هو سؤال غير وارد على الاطلاق . فلا يكفي ان نسأل السؤال حول هوية المفكر اليهودي « مجرداً » ، وسيكون التحدث عنه بوصفه مظهراً للأناية الكبرى التي تظهر في نوع من الفراغ في الخلود اليهودي ، حديثاً غير مثمر . ان السؤال يدور حول هوية المفكر اليهودي - أجل ولكن في أي مجتمع بشري ، وفي أية محيط ، وفي اية علاقة لمشاكل عصرنا؟ انني أشعر بان هذه هي الطريقة التي يمكن ان يطرح بها السؤال - اذا كان لأحد ان يطرحه .

وانه لجحافة للحقيقة ، وبما لا طائل تحته ، ان يعني المرء بصورة كلية وقسرية بالفلسفة الذاتية للمثقف اليهودي محاولاً ان يعرف نفسه دون الرجوع الكافي للعالم الخارجي وللخصومات التي تمزقه وتجعل البشرية مجزأة . وايضاً ، اذا كنا معنيين بمركز اليهودي في المجتمع فعلينا ان نبحث في الحسايل عن اليهودي الذي تتوخاه وعن نوع المجتمع الذي نفكر فيه . هل هو اليهودي الذي يعيش في مجتمع امريكي او سوفييتي؟ في بريطانيا؟ في فرنسا؟ في المانيا او في اسرائيل؟ ان مكانة اليهودي تتفاوت في كل مجتمع من هذه المجتمعات فما هي الصفة المشتركة الموجودة بين مواقف وادوار ووظائف اليهود في مثل هذه الاحوال المختلفة ؟

وانه لمن الاهمية بمكان ، وما يميز عصرنا ، ان اليهودي يشعر الآن ، واكثر من أي وقت مضى ، بالحاجة الملحة للقيام بمحاولة لتحديد مكانته في البيئة غير اليهودية التي يعيش فيها . وعلى سبيل المثال يعرف المفكر اليهودي ان هناك اختلافاً نوعياً بين دوره ودور المفكر الايرلندي في الولايات المتحدة ، فهل خطر للرئيس كينيدي ، وهو مثقف ايرلندي ، ان يسأل نفسه عن ماهية هويته كمثقف ؟ علاوة على ذلك فان اليهودي مدرك دوماً ، وبألم ، بان هناك بونا شاسعاً بين مكانته ومكانة الايرلندي في امريكا . ان دولة «الديمقراطية العظمى» تشعره بأنه سيكون اسوداً آخر .. ولكن يجحد ابيض : وفي الولايات الجنوبية نجد ان اليهودي أشد تعصباً من غيره في حمل فكرة سيادة البيض . وانسه لمن الصعوبة بمكان التعرف بهوية شخص ما وسط هذا التشابك من المشاعر والخاوف والتحاميل والقطرة العنصرية ، ولم سيكون اكتشاف تفهم مرض لجميع تعقيدات الموقف من الأمور المستحيلة .

قبل ٣٥ عاماً لم يكن المثقف اليهودي يشعر بأية ضرورة لان يقوم بتحديد دوره وهويته وأنا شخصياً لم اكن لأناقش سؤالاً كهذا ، لا لأنني لا امتلك جذوراً في التقليد اليهودي بل على العكس ، فقد تربيت في بيئة يهودية ، وفي مدرسة

تلمودية صارمة التعاليم في حياتي المبكرة وتظاهرت واعلنت العصيان ضد التزمته
الديني اليهودي بيد اني انبهرت بالعناصر التي كانت تعمل في الثقافة اليديشية
غير اليديشية التي عبرت عن نفسها من خلال الأدب والمسرح . ولقد قمت شخصياً
بالكتابة باليديشية ، وخاطبت تجمعات كبيرة من العمال باليديشية في لقاءات
غير سياسية في الغالب . وما زلت اتصور امامي جموع الصغار والكبار ، شغيلة
وحرفيين وعن المعوزين وهم يتجمعون في المساء ليستمعوا الى قراءات من
الشعر والدراما ، وغالباً ما جاءوا بلباس العمل ليظروا بيرتقز ماركيش
Pertez Marakis او اترك مانجر Itzik Menger وهما ينشدان الشعر
وجوزيف اوباتوشو او ويزنبرغ وهما يقرآن النثر او نومبرغ H. D. Nomburg
وهو يحتفل بذكريات كتاب اليديشية القدامى . ولا نجد مكاناً في العالم بما فيه
العالم المتدين ، ولربما يستثنى من ذلك موسكو ، اناساً يهتزون طرباً لكتابهم
وشعرائهم كما كان يهتقز ويظرب الشغيلة اليهود في وارسو أو في المناظمات
البولندية واللوانية . هنا نجد شكلاً من الوعي الثقافي اليهودي كان يشكل
نفسية جديد من خلال خصام عنيف مع الوعي الديني .

ومنذ ذلك الوقت قضيت معظم سنواتي ، تلك التي شهدت نشاطي السياسي ،
بين الشغيلة اليهود . لند كنت اكتب باللغة البولندية واليديشية وشعرت بان
هويتي كانت مندججة بحركة العمال في شرق اوروبا بشكل عام وبحركة العمال
البولندية بشكل خاص . وحاولنا بوصفنا ماركسيين ، وبشكل نظري ، ان ننكر
ان حركة العمال اليهودية تمتلك هوية خاصة بها ، ولكنها امتلكت ذلك بالفعل
وبدا من الراضح ان المثقف اليهودي قد وجد له دوراً في حركة العمال هذه ،
وما كان عليه ان يتحمل مشاق تحديد هويته . وكان مصدر ازدهار الادب اليديشي
هو من الطبقة العاملة في اوروبا الشرقية ، غير أن اللغة اليديشية ، تلك التي اتسمت
بالقوة والبلاغة والتجدد والغنى ، أصبحت فجأة لغة ميتة . ذلك أن الكتاب
والشعراء اليهود التصقوا بحركة العمال اليهودية التي رأيناها فيما بعد تفرق
في العدم .

وكما نعلم جميعاً ، فان بعض الاوساط اليهودية في الغرب ذات طبيعة منفرة وبغيضة ، ولا شيء فيها سوى بعض الطقوس الدينية ووفرة من المال ، أما عندنا وفي البيئة التي اعرفها ، فقد حدث العكس ، فلا يوجد اموال ولا شعائر دينية ولكن وفرة في الامل والافكار والمثل . اننا نشعر بازدياد كامل نحو يهود الغرب فرفاقنا هؤلاء مصنوعون من طينة مختلفة .

وكانت قد اتبعت لي الفرصة في اواخر الثلاثينات لكي اكون على اتصال وثيق برجل يكبرني بعشرين سنة تقريباً . لقد ولد هذا الرجل في فقر مدقع ونشأ مع ادنى الطبقات الكادحة ومع ركام المدينة ، في اسفل درجات السلم الاجتماعي وبقي امياً حتى السابعة عشرة من عمره . وعندما تعرفت به وجدته من افضل مثقفي العمال الذين صادفتهم في أي بلد . لم اعرف ابداً أين تعلم القراءة . ولكنه استوعب بحماس وتلف في خلايا سجون روسيا القيصرية وسجون بولندا ، كل ما اعطى له من الادب العالمي والادب الكلاسيكي الاشتراكي وذلك في المحاضرات اللينينية في موسكو وفي حلقات النقاش داخل الحركات السرية الثورية . لقد كان هذا الطفل الذي نشأ في اقصى انواع الفقر اليهودي يفضل دوماً ان يحوز على مقدار ضئيل من المعرفة على ان يظفر بمقدار وافر من الخبز وكانت الثورة الروسية الاولى عام ١٩٠٥ بمثابة الوهج الذي اثار له آفاقه ، وعلى ضوئها - وفي داخل السجن وخارجه - قام بقراءة مؤلفات ماركس ، انجلز ، كاوتسكي ، وقرأ روايات تولستوي واشعار ميكويكز ومسرحيات بيريتز . وكتب مرة في مذكراته يقول « لو لا قيام الثورة لكنت قد غرقت في مستنقعات عالم الرذيلة والاجرام في شارع سموكا » . ولكنه ترك شارع سموكا بغاياته ومواخيره ، بنشاليه ولصوصه ، بانحلاله الخلقى والمادي تركه بعيداً وراءه . حقاً ، لقد ارتفع من وادي الدموع في طفولته الى القمم الروحية لعصره . لقد كان عليه أن يعرف لماذا يكافح واستطاع ان يفعل ذلك فلم تكن له منزلة في المجتمع الذي ولد فيه - وكرس حياته لتغيير ذلك . وكان في طبيعة

الشغيلة اليهود الذين عملوا في مقاطعة وارسو . كان جميع هؤلاء يحملون هويتهم مطبوعة على جيابهم وفي عيونهم وفي ايديهم الكادحة المتعبة . أما نحن ، المثقنين اليهود ، الذين 'عُسنوا' هؤلاء ، بتطورهم وثقافتهم ، بتطلعاتهم ورغباتهم فقد كان لنا ايضاً هويتنا المحددة بدقة وبدون أن نبحت عنها مطلقاً .

كان على البرجوازيين ذوي النفوذ من اليهود الغربيين ان يحملوا كتبهم الدينية ، كشيء سوف يعزز من شعورهم بكرامتهم واحترام الآخرين لهم ، وكان عليهم أن يجاروا جيرانهم من مسيحيي الطبقة الوسطى الذين يحملون كتبهم المقدس عند ذهابهم للكنيسة كل يوم احد . أما نحن فانا نملك كرامتنا ولا حاجة لغير ذلك . ومع أننا كنا نعرف التلمود الا اننا كنا نحس أن كل مسأفيه من مثاليات لم يكن اكثر من ذر للرماد في العيون . لقد نشأنا في ظل الماضي اليهودي وكان تاريخ القرن الحسادي عشر والثالث عشر والسادس عشر يعيش في الباب المجاور لنا وتحت سقفنا بالذات ، ولكننا قررنا الفرار منه والعيش في القرن العشرين . لقد استطعنا ان نرى ونشم ضبابية ديانتنا البالية ونمط الحياة الذي لم يتغير منذ القرون الوسطى ، من خلال البريق الخادع السميك ، ومن خلال طلاء الخياليين امثال مارتن بوبر . وبالنسبة لشخص يمتلك خلفيتي فانه ينظر الى الرغبة الحديثة لليهودي الغربي في العودة الى القرن السادس عشر ، تلك الرغبة التي يفترض ان تساعد في استرداد او اعادة اكتشاف هويته اليهودية الثقافية على انها رغبة غير حقيقية وغير أصيلة .

لنتقل الآن من الذكريات الشخصية الى قضايا اكثر عمومية . عندما يثير أحدهم مسألة الهوية اليهودية يبدأ بافتراض وجود مساوية ايجابية . ولكن هل نحن مؤهلون لوضع مثل هذا الافتراض ؟ إلا يكون الوعي اليهودي في هذه الفترة من تاريخ العالم ، انمكاساً ، بصورته الرئيسية ، للضغوط المعادية للسامية ؟ انني اعتقد بانه لو لم تكن المعاداة للسامية قد اثبتت عمق جذورها وتواصلها وقوتها في الحضارة المسيحية الاوروبية لما ظهر اليهود اليوم كطائفة متميزة ،

بل لاصبحوا مندمجين كلياً . ان الذي كان يعيد خلستى اليهودية باستمرار ،
ويمنعها حيوية متجددة هو عداء البيئة المسيحية . لم ير اسبينوزا ، قبل ثلاثمائة
عام ، ما يشير الدهشة لكون ان اليهود قد حافظوا على بقائهم بالرغم من تشتتهم
وفقدانهم لدولتهم مدة طويلة من الزمن ، فهو يفسر ذلك فيقول « لقد تعرضوا للبغض
الشامل بانقطاعهم كلياً عن الشعوب الأخرى » . وهو يميزو بقسائم لعداوة
الآخرين : ويدكر بأنة عندما خيّر ملك اسبانيا اليهود بين القبول بديانة ملكته
او الذهاب الى المنفى ، اعتنق عدد كبير منهم الديانة الكاثوليكية ومن ثم
منحوا الامتيازات وعوملوا بنفس الاحترام الذي يعامل به المواطنون الآخرون .
وسرعان ما اعتبروا انفسهم من الاسبان ، وبعد سنوات جرى اندماجهم
بالسكان المحليين . أما في البرتغال فقد حدث العكس . فعندما اجبر ايمانويل
الاول اليهود على اعتناق ديانته « تحولوا » بالفعل ، ولكنه بقي يعتقد بانهم لا
يستحقون أي مركز محترم ولهذا بقوا منفصلين عن المجتمع البرتغالي .

ويمكن للمرء ان يقول ان ما يوقظ مثل هذه المشاعر السلبية لا بد ان يكون
في ذاته ذا صفة أو هوية محددة ايجابياً . مهما يكن من أمر ففي نهاية القرن
كانت « هوية اليهود المحددة ايجابياً » تمر في طور الانحلال . والحقيقة ان
الصهيونية برزت الى الوجود كأحتجاج ضد هذا الانحلال في حين ان الاشتراكية
الاروروبية قبلت ، بشكل عام ، اندماج اليهود وشجعت على ذلك كجزء من
حركة اوسع واكثر تقدمية وكننتيجة لما يفترض في المجتمع الحديث ان يقوم به
من التخلص من كل الاعراف القومية والاقليمية .

لقد كان العنصر الايجابي في الهوية اليهودية متأصلاً ، ولقرون عديدة في
الدور الاستثنائي الذي لعبه اليهودي في المجتمع الاوروبي . ففي عصر الاقطاع وبداية
الرأسمالية كان اليهودي يمثل نظام الاقتصاد النقدي وافكار هذا النظام في نظر

شعوب كانت افكارها تتطلع نحو قيام اقتصاد طبيعي . ولم يكن من قبيل المصادفة ان تتخذ صورة اليهودي في ذهن المسيحي شكلاً رمزياً مثل شيلوك او فاجين ذلك الرمز الذي يظهر في الأدب العالمي في روايات وترجمات عديدة . كذلك لم يكن الحقد هو الذي دفع ماركس ليقول ان الرب الحقيقي لليهودي هو المال . لقد تمعد هذا لا لكي يدين اليهودية خلقياً وانما ليقول جملة حقيقية حول الدور الخاص لليهودي في المجتمع المسيحي . ومضى ماركس ليقول ان المجتمع المسيحي بنموه في اتجاه رأسمالي متصاعد انما يصبح « مهوداً » اكثر فأكثر . لقد كان مقتنماً أنه عندما يبدأ المجتمع الاوروي بالتحول من الرأسمالية الى الاشتراكية يكف اليهودي والمسيحي على السواء عن كونها « يهودي » او « مسيحي » . وفي حياة ماركس التي شهدت عصر الاندماج ، كانت هوية اليهودية تمر في طور الثلاثي ، على الأقل في غرب اوروبا .

انني اعتقد بأن الاحداث المأساوية للعهد النازي لم تبطل التحليل الماركسي الكلاسيكي للمألة اليهودية وهي لا تدعو الى اعادة النظر فيه . ومن البديهي ان الماركسية الكلاسيكية لم تقر او تسلم بأي شيء مثل « الحبل النهائي » الذي قام به النازيون او التعقيدات المميتة المشككة في فترة ستالين والفترة التي تلتها في الاتحاد السوفياتي . لقد ارتأت الماركسية الكلاسيكية تطوراً صحيحاً واكثر انسجاماً مع الطبيعة العامة لحضارتنا الا وهو الانتقال الزمني من المجتمع الرأسمالي للمجتمع الاشتراكي . ولكنها لم تأخذ في حسابها استمرار الرأسمالية بأثارها الانحلالية على الحضارة بشكل عام . ومع ذلك فان ماركس وانجلز وروزا لوكسمبرغ وروتسكي قالوا مراراً بأن البشرية تواجه بديلين ، فاما الاشتراكية الامية واما البربرية . ومن المحتمل ان لا يكونوا قد تصوروا كم كانوا صائبين في قولهم وكم ان الدليل كان حقيقياً . مها يكن فانهم لم يستطيعوا ان يتنبأوا بمسدى العمق البربري الذي ستفرق فيه البشرية اذا فشلت في اعتناق فكرة الاشتراكية .

أما النازية فلم تكن اكثر من مجرد دفاع ذاتي للنظام القديم في وجه الشيوعية .

لقد شمر النازيون بان هذا هو دورهم ، كذلك فقد رآهم المجتمع الالمانى باكمل من خلال هذا الدور ، ودفعت اليهودية الاوروبية ثمن بقاء الرأسمالية ونجاحها في حماية نفسها من الثورة الاشتراكية . ان هذه الحقيقة لا تدعو إلى اعادة النظر في التحليل الماركسي الكلاسيكي - انه على الأرجح تؤكد على صحة هذا التحليل . ان مصير اليهود لا يضعف من قناعاتي الماركسية بل على العكس فانه يدعمها ويثبتها .

ان الماركسية بوصفها طريقة ومفهوماً مادياً للتاريخ ، تساعد على تحليل القوى التي تشكل المجتمع . فاولئك الذين استخدموها كطريقة للتحليل كانت لديهم حسن داخلي - وبالنسبة لتروتسكي رؤية خارقة - بالوحشية التي هددت بابتلاع اوروبا . غير ان الرعب الكامل والانحلال والطبيعة المرضية للنظرية والتطبيق النازي فاقت كل التصورات الطبيعية والمعقولة للبشرية .

وانها لما ساءة وحقيقة مروعة ان يكون هتلر هو أكبر « مجدد » لليهودية ، وهذه تعتبر احدى اصغر الانتصارات التي حققها بعد موته . لقد كانت مذمجة اوستويتز بمثابة السرير الهزاز والمرعب للوعي اليهودي الجديد وللامة اليهودية الجديدة . وانه لأمر غريب ومؤلم ان يفكر اولئك الذين اكدوا على اليهودية وبقائها ، بان ابادة ستة ملايين يهودي قد اعطت الحياة لليهودية . لقد كنت افضل ان تهلك اليهودية مقابل ان يحيا ستة ملايين رجل وامرأة وطفل ، فمن رماد الموتى اطلت العنقاء اليهودية . فيا له من انبعاث !

وها هي هذه الهوية الجديدة التي انبعثت بشكل مفاجع تصرخ الآن وتئن وهي تحاول أن تحدد ذاتها وتستقر في الحقيقة التي تحطمت بالماضي القريب ، ان هذا الجهد اليائس سوف يكون عقيباً اذا ما بني على أساس المعالجة اليهودية البهتة . فمن الذي يذهب للبحث عن هويته اليهودية ؟ هل هو سير اسحق ولفسون أم منديس فرانس ؟ أهو بن غوريون أم لازار كاغانوفيتش ؟ الهاخام الأكبر لبريطانيا أم انا شخصياً ؟

بالنسبة لي شخصياً ، فإن الطائفة اليهودية ليست إلا ناحية سلبية . فلا يوجد أي شيء يجمع بيني وبين اليهودي في حي « ميشيرم »* بالقدس مثلا ، أو بيني وبين أي فئة من القوميين الاسرائيلين . ان الجنساح اليساري الماركسي في اسرائيل يسترعي انتباهي واكثني أشعر بأنني أقرب الى ذوي الذهنيات المائلة من الناس الموجودين في فرنسا ، ايطاليا ، بريطانيا واليابان أو الى تلك الجموع الاميركية التي خطبت بها في واشنطن وسان فرانسيسكو في اجتماعات الاحتجاجات المضخمة ضد الحرب في فيتنام . فهل سنقبل الآن بالفكرة القائلة بأن الروابط العنصرية أو رابطة الدم هي التي تكون الطائفة اليهودية . ألا يكون هذا انتصار آخر يحرزه هتلر وفلسفته المنحلة ؟

وإذن ، فما الذي يجعل من المرء يهودياً ان لم يكن هو العرق ؟ هل هو الدين ؟ إذا كان كذلك فأنا ملحد . هل هو القومية اليهودية ؟ انني أمني . إذن انا لست يهودياً في كلا المعنيين . مع ذلك فأنا يهودي بقوة تضامني المطلق مع المضطهدين والمعدمين . أنا يهودي لأنني أشعر بأن المأساة اليهودية هي مأساتي الشخصية لأنني أتحسس نبض التاريخ اليهودي ولأنه ينبغي علي أن أعمل بكل طاقتي لاتأكد من سلامة اليهود الحقيقية غير المزيفة ومن احترام الذات اليهودية .

ان الاختلاف في الخلفية وفي ظروف الوجود التي تفصل بين سسير اسحق ولفسون أو الحاخام الأكبر لبريطانيا وبينني ، أو بينها وبين صديقي البولندي - الذي سبق ان وصفته عامداً - يؤكد على التعارض في طريقة معالجة المشكلة على أساس يهودي بحت . ان تحديد هوية اليهودي أمر محير تماماً لأن حياة اليهود في المنفى عرضتهم لمختلف انواع التأثيرات والضغط الهائلة وكذلك الى تنوع الوسائل التي كان عليهم استخدامها كي يحمو أنفسهم من العداوة والاضطهاد . ان انهاكي بالقضايا اليهودية قبل الحرب يعتبر ، بدون شك ، تدخلا هداماً ونوعاً من الهرطقة وبعداً مطلقاً عن اليهودية في نظر جميع رعايا الكنائس اليهودية في

* (Mea Shaarim) . حي ديني يهودي في القدس . (م)

نيويورك وباريس ولندن .

ان الحديث عن « المجتمع اليهودي » كوجود كامل ومستقل لا معنى له ولا سببا ، لغو من المبادئ الماركسية . ان الماركسي ينظر الى جميع المجتمعات من زاوية تقسيماتها الطبقيه إلا ان « المجتمع اليهودي » بالإضافة الى احتوائه على طبقات اجتماعية متعاديه فانه جغرافياً منقسم . ان التقاليد الثقافية للامم التي عاش اليهود في بلادها كأقليات ، قد تركت تأثيراتها فيهم بصور متفاوتة ، وتركت على نظرهم العقلية طابعاً يختلف من شخص الى آخر . (وعلى سبيل المثال ، لا يزال التوتر والعداء قائماً بين اليهود الالمان ويهود شرق اوروبا الأمر الذي يشكل موضوعاً لعدد لا يحصى من النكات الساخرة حتى في اسرائيل) .

كانت الحياة اليديشية الثقافية العلمانية في شرق اوروبا مرتبطة عضويًا بحركة العمال ، وبعد الآن فانه من المستحيل إعادة احياء هذه الحياة وهذه الحركة . ان الحركات التي تفرعت عنها هي الآن في طور الانقراض . فاذا كان للمرء ان يرفع اللغة اليديشية فستكون رعايته محدودة كأي تقليد يصعب اضافة شيء إليه . وأذكر انني كنت أناقش هذا السؤال منذ اربعين عاماً مع موسى نادر وهو ممن امتلكوا ناصية اللغة اليديشية ومن أكبر المتفهمين لهذه المشكلة في ذلك الوقت . كان الناس قد شرعوا يناقشون فرص احياء او تطوير اليديشية في امريكا . وكان نادر متشككاً وهو يقول : « انا لا اؤمن بأن اليديشية ستبقى ، ولكن لا يزعجني ان لا تدوم » . اذا انقضت لغتنا فاننا ، نحن كتاب اليديشية ، سوف نقرأ وندرس كاساتذة لأي أدب منقرض ، كاليونانية او اللاتينية ، سوف نصبح ذوي شهرة تاريخية وأدبية وسوف تقرأ الأجيال القادمة مقطوعاتي الهجائية كما نقرأ الآن وندرس مقطوعات « هوريس او اوفيد » .

ان عبارة نادر المتناقضة ظاهرياً قد اصبحت صحيحة وعلى نحو أدعى للتساؤم مما كان نادر يتصوره . فرغم عدم مبالاته لمصير اللغة ، فانه على الأرجح

ميال إلى ان يُشرك قراء الانجليزية في تذوق الشعر والنثر اليديشي ويحمل اليهم غنى الأدب الذي ورثته اليديشية . ولكنه كان يدرك ان هذه الجهود مهما اتسمت بالذكاء والدقة والمحبة ستبقى ذات أثر ضعيف فمع ان عشرات الآلاف من اليهود ما يزالون ينطقون باليديشية غير ان هذا اساس ضيق لنمو أي أدب أو حضارة حية .

ان بقايا اليهود مشتتون في جميع أنحاء العالم ولكن بعض التقاليد العلمانية قد تجد لها صياغة في لغات أخرى . والعنصر اليهودي احتل مكانة بارزة في الرواية الاميركية ، ولكن هذا لن يساهم بأي درجة في بقاء اليهودي الخالص الاصيل . ومنذ زمن طويل وحتى اليوم يتجادل الكتاب اليهود حول هوية الكاتبين هاين وبورين ، هل هما من اليهود أم انها يمتبران ببساطة ، من الالمان ؟ ليس هناك جواب محدد تماماً . لقد خاض هاين صراعاً طويلاً مع المشكلة اليهودية وكذلك فعل بورين . وقد علق هاين على اعتناق بورين المسيحية قائلاً : « لقد كنت بالأمس بطلاً ، أما اليوم فليست أكثر من وغد » . ومع هذا فقد كان هاين يهد الخطوة بمائلة حتى يجعل من تعميده « بطاقة دخول للحضارة الاوروبية » . ولقد كان عبء يهوديتهم خفيفاً على الاجيال التي تلتهم من امثال فرانز ويرفل وارنولد وستيفان زفايج ، ويزرمان والعديد غيرهم ممن نالوا شهرة عالمية في الفترة التي سبقت العهد النازي .

وهناك عدد غير قليل من الكتاب البولنديين من اصل يهودي أمثال جوليان توم وانطونيو سفونيسكي وهما من ابرز الشعراء في زمن الحرب . وظهر الباعث اليهودي في كتاباتهم احياناً ولكن بشكل عابر ، إلى ان وقعت مذابح الفيتو فأعطت ابعاداً جديدة لشعرهم . ومع ذلك فلم يكن لديهم احساس عميق بيهوديتهم على غرار اسحق بابل البلشفي مثلاً والذي قاتل في الحرب الأهلية فنجا ثم غرق في بحر الثورة الروسية .

لقد أدى تركيز اليهود في مناطق الحدود في روسيا الى جعل أي نحو روحي عضوي بين اليهود والسلافيين امراً غير ممكن . وفي بولندا اقام اليهود في احياء مهجورة حتى قبل عام ١٩٤٠ . كانت القومية البولندية واللاسامية والاكليركية الكاثوليكية يعملن الى جانب الانفصالية اليهودية ، وعملت الارثوذكسية والصهيونية ، من جهة اخرى ، ضد قيام تكافل مشر ودائم . وعلينا ان نتذكر بأن منظري الصهيونية ، وليس الاشتراكية فقط ، قد تكلموا عن الصفة غير المنتجة « للنظام الاقتصادي » اليهودي في المنفى ، ولذلك فان العداوة بين العناصر المنتجة والعناصر غير المنتجة في المجتمع كانت امراً حتمياً في أية حال ، ولقد نما على هذه العداوة الاجتماعية والاقتصادية عبر القرون ، البناء الفوقي الضخم للفرية الايديولوجية . فلم تظهر في بولندا أي صلة بين الأدب البولندي والأدب اليديشي . وبعبارة أدق ، لم يكن الكتاب والاكاديميون والمثقفون البولنديون مدركين حقيقة ان وارسو كانت مركزاً للأدب اليديشي المعاصر والمزدهر الذي يقرأه اليهود وينال الاعجاب في جميع انحاء العالم .

وبحلول نهاية القرن أصبح الموقف في روسيا أشد تعقيداً . كان للثقافة الروسية قدرة هائلة على الاستيعاب وذلك للطابع العالمي للأفكار التي غذتها في العصر الحديث مثل افكار تولستوي وبليخانوف ولينين . لذلك من الصعب تحديد الاثر اليهودي الخاص في الحضارة الروسية . ولقد صادف ان مساهمة اليهود في الأدب الروسي لم تبدأ قبل عام ١٨٩٠ فقد بدأت مساهمتهم مع نشوب الثورة فقط - كانت هذه « بطاقة الدخول » للثقافة التي أبعدها عنها قرونناً عديدة . وفي عصر الثورة كان ليون تروتسكي (يهودي) من اعظم من امتلكوا ناصية النثر الروسي ولم يمكن يمارس نفوذه بوصفه يهودياً . أما بالنسبة للأدب البولندي فقد تطرق الى المواضيع اليهودية في وقت مبكر وشغلت المسألة اليهودية الشعراء والروائيين قبل ان تستعيد بولندا استقلالها . واخشى ان تكون البواعث اليهودية في شعرهم ورواياتهم دخيلة ومقصودة - وربما تكون

غير مفهومة كلياً لدى الأجيال الصاعدة من البولنديين الذين لم يعاصروا اليهود في بلادهم .

هل بالإمكان إزالة كل الآثار التي خلفها اليهود في شرقي أوروبا ؟ لقد تركوا بعض الآثار على وجه التأكيد : ولكن تبقى القضية هي ما إذا كانت هذه الآثار ستحمل من المعاني في المدى الطويل أكثر مما تركه الهنود الجر على الحضارة الأميركية . ويصعب على الأجيال الحاضرة من اليهود ان تتقبل حقيقة ان العنصر اليهودي في وسط وشرق أوروبا قد أقصي تماماً بعد ان كان له وزن كبير .

ويوجد الآن تحول جديد واساسي في حياة اليهودي وهويته في اسرائيل . ان اللغة العبرية تشكل الوعي الثقافي لاسرائيل وهي تستمد قوتها من التوراة والتلمود والطقوس الدينية ولذا فهي تغذى بأشباح الماضي . ان حي ميشيريم في القدس لم ينتج أدباً على الاطلاق لأن اليهودي المتعصب ينظر الى الكتابة العلمانية بالعبرية ، مهما كان مجالها ، على أنها نوع من التجديف على الله . فمهما كانت الطريقة التي ينتهجها الشاب المعاصر كي يؤكد فيها على خلافه مع الدين واستقلاله عنه فان عليه ان ينقب في الماضي كي يجي اللغة التي ماتت قبل ٢٠٠٠ عام . لقد عاشت هذه اللغة في اللاهوت وليس من اليسير عليها ان تحقق علمانيتها . وبالنسبة لي فأنا لا استطيع ان اقبل هذا التحول العبري في الوعي اليهودي واتثربه في هويتي . لهذا فقد تكونت ذهنيتي بقوة من التقليد الاوروبي الأممي البولندي الروسي الالماني الانجليزي وقبل كل شيء الماركسي . ان العبرية تنتمي الى طفولتي وفترة مراهقتي . وبما أنني انشقت عنها ورفضتها فلاستطيع الآن ان أعود اليها .

فاذا كنت ماركسياً غير نادم على ماركسيتي وملحداً وأمياً فبأي معنى ، اذن ، أكون يهودياً ؟ ما الذي سيضعني قريباً من « الطائفة السلبية » ؟ من الغريب فعلاً ان أجد نفسي قريباً من مشاركة اليهودي الارثوذكسي والصهيوني

في مخاوفه . فأنا لا أومن بأن اللاسامية قوة مستنفذة ، وأخشى ان نكون في سعادة وهمية ، فشعور التحرر من اللاسامية يمكن ان يكون خداعاً آخر ، خداعاً يهودياً بالتحديد ، أحدثه « مجتمع الكفاية والوفرة » الذي نعيش فيه .

عندما ووجه تروتسكي بظاهرة النازية وصفها بأنها « الرفض الهادي للفكر السيامي الأهمي » والتي ذهبت في صنع « الثروة الفكرية للتفوق الألماني الجديد » وقامت بتحريرك وحشد كل القوى البربرية الكامنة تحت سطح رقيق من مجتمع الطبقات « المتمدن » . ولخص تروتسكي جوهر النازية في عبارة جديرة بالذكر ، زاخرة بالتحذير المسبق من غرف الغاز يقول فيها : « ان كل شيء كان يقدر للمجتمع ان يرفضه لو تطور بصورة طبيعية (أي نحو الاشتراكية) مثل حالة الحضارة يقوم بتقيئته الآن ... ان الحضارة الرأسمالية تلفظ الآن بربريتها التي لم تهضم ... » أنا اعتقد بأن مجتمعنا البورجوازي في الغرب (ولسوء الحظ فان هذا ينطبق على المجتمع الروسي في المرحلة التي تلت الرأسمالية) كان قادراً على أن يستوعب ويخلص نظامه من بربرية الأجيال التي مثلها هتلر . وفي العهد الذي راج فيه المذهب العقلاني في التفكير سمعتمهم يرددون كيف توقع اليهود حدوث تسامح دولي فقال بعضهم لبعض : « دعونا لا نزعج أنفسنا بالتوراة والتلمود ولترقص بعد اليوم حول آلهة العقل » . ان آلهة العقل هذه هي التي فشلت فقد كانت آلهة بورجوازية تخدم مجتمعاً لم يسمح له انشغاله بكسب الثروات بهضم البربرية . وفي كل لحظة اتسمت بالفرع الشديد كان هذا المجتمع يثير نزعات « القومية » و « العنصرية » وارهاب الغرباء وإثارة البغض والخوف لديهم .

دعونا لا نتصور الآن أننا سترقص مرة أخرى ، في هذا الصيف الذي شهد ازدهار بورجوازية ما بعد الحرب ، حول آلهة العقل وانها في هذه المرة لن تحيب أملنا ولكنها ستمنحنا فضائلها في كل شيء والى الأبد . اننا نشاهد حتى في هذا المجتمع الانجليزي السامي بلبراليتيه ومدنيتيه صلباناً معقوفة ومرسومة في أماكن متعددة ، من بنايات المقاطعات التي تتمتع بسمة حسنة . واعرف من

خلال تجربتي الشخصية ان البحث عن طابق سكني ، مثلا ، في حي هاميشيد في لندن يمكن ان يجابه برد ان الجيران يعارضون سكن الزنجي أو اليهودي عندهم . ولكن سيرحبون بك بالتأكيد كاستثناء . . أجل تحت هذا السطح الناعم تكمن البربرية ، خشنة وقاسية ومتحفزة للاندفاع .

قد يكون لدينا انطباع ، هنا ، في دولة تكفل رفاه الشعب بأن اللاسامية قوة مستنفذة لأننا مرثاحون وراضون ومشاكل شعبنا الاجتماعية مبددة . فلندع هذا المجتمع يعانٍ من أية صدمة قاسية كما هو محتوم عليه ان يعساني ، ولندع الملايين بدون عمل مرة أخرى وسنرى نفس الشرائح المتدنية من الطبقة الوسطى تتحالف مع البروليتاريا الرثة تلك التي عزز فيها هتلر نزعة المعاداة للسامية . وطالما ان الدول القومية تفرض سيادتها ، وطالما اننا لا يوجد لدينا مجتمع أممي وطالما ان ثروة كل الأمة هي بين أيدي أقلية رأسمالية وطنية تحكمه فسوف يتواجد لدينا تعصب قومي وعنصري يبلغان ذروتها في المعاداة السامية . ولهذا السبب اعتقد ان دور المفكرين - يهوداً وغير يهود على حد سواء - المدرسين لعمق المأساة اليهودية وخطر تجددتها هو دور الاحتجاج الأبدي أي المحافظة على معارضة القوى التي تعمل ضد الطقوس الدينية والمعتقدات والنضال من أجل مجتمع سوف تنحسر فيه القومية والعنصرية بالنهاية ، وترفما قبضتها عن العقل البشري . وأنا أعرف ان هذا ليس مخرجاً سهلاً فقد يكون محزناً ومؤلماً ، فلن يكون هناك تحديد دقيق لمبادئ العمل بالنسبة لسالكيه ، ولكن اذ تخلينا عن الاحتجاج فسنعق في دائرة خبيثة ومهلكة ، دائرة الانتحار .

عندما ينظر أحد في سجلات المثقفين اليهود في الغرب فانه يخلص باستنتاجات غالباً ما تكون محزنة ونخبية الآمال . ان الذي يلفت النظر في أمر المثقفين اليهود في الغرب هو ، بالتحديد ، ضعفهم السياسي والايديولوجي والاجتماعي . وفي الحرب الباردة التي سيطرت على ارواحنا لمدة تزيد على ١٣ عاماً كان أكثر

الناس شهرة هم من اليهود. ولربما استثنى من ذلك اولئك الذين يعملون بالدراسات العلمية البحتة . أما عندما ننتقل الى روائع العلوم الانسانية فاننا نرى من بين جمهوره المؤرخين والسياسيين وعلماء الاجتماع عدداً كبيراً من اليهود الذين يعملون بقوة في الحرب الباردة لمصلحة هذا المجتمع ببربريته الفوضوية .

واعتقد انه لا يمكن تبرير بحث اليهودي عن هويته إلا في حالة واحدة فقط ألا وهي حالة ما اذا كان ذلك البحث سيساعده في نضاله من أجل مستقبل افضل للبشرية جمعاء .

الثورة الروسية والمشكلة اليهودية

ان أية معالجة لموضوع الثورة الروسية والمشكلة اليهودية تتطلب من الباحث أن يكون متحسباً في معالجته للامور وذلك لشدة تعقيد المشكلة ولتمدد جوانبها. فلا شيء أسهل، وأكثر أذى، من تبسيطها، ومحاولة توزيع الملامة - لوم اليهود أو الثورة أو الروس. وعلينا ان نحترس من التفكير في هذه المشكلة بالتعابير المألوفة بشأن الملاقة بين روسيا الثورية والقوميات الأخرى في الاتحاد السوفياتي. بهذا المعنى تكون « المشكلة اليهودية » فريدة من نوعها. ولكي نراها بجميع تعقيداتها الحقيقية، علينا ان نرجع لأصولها كأن نحلل بإيجاز تركيب السكان اليهود في بداية الثورة وأن نتحقق من مكانة اليهود في المجتمع الروسي وان نتابع التغيرات والتحويلات في الثورة الروسية ذاتها وان نقيم اثر جميع هذه التغيرات على مصير اليهود في الاتحاد السوفياتي. ولا بد من ان نجيب بصراحة على السؤال الأساسي التالي: لماذا لم تنجح الثورة الروسية، في مسار يقرب من نصف قرن تقريباً، في حل المشكلة اليهودية؟

يتوجب عليّ ان ابدأ برسم مقارنة دقيقة بين مكانة اليهود في المجتمعات الغربية ومكانتهم في اوروبا الشرقية وخاصة في روسيا، وبالتحديد من ان النظر إلى المسألة اليهودية في روسيا، من خلال شكل الحياة اليهودية في اوروبا الغربية، يعني ان ننظر برؤية مشوهة وان نباشر بتحقيق ان يقودنا إلى شيء.

ويجب ان لا تفكر، ولو للحظة واحدة، ان الحياة اليهودية والمجتمع اليهودي في اوروبا الشرقية، وفي روسيا، تشبه حياة المجتمع اليهودي في بريطانيا او فرنسا أو حتى في الولايات المتحدة بأي شكل من الاشكال .

خلال القرن التاسع عشر كان اليهود في اوروبا الغربية ينتمون بصورة رئيسية إلى الطبقة الوسطى. كان هناك عدد قليل جداً من الممال اليهود وعدد من الحرفيين وبعض أصحاب المحلات الصغيرة . فمعظم اليهود كانوا من التجار الذين يقومون بمبادلاتهم على نطاق واسع في عواصم غربية عديدة ، كما كان بعضهم من كبار أصحاب البنوك وأصبح آل روتشيلد رمزاً للبورجوازية اليهودية المنفطرة . وتميز المجتمع اليهودي ، بصفة البورجوازية السائدة في الغرب بشكل مناقض لصورة المجتمعات اليهودية في اوروبا الشرقية . صحيح انه وجد في الشرق بورجوازية يهودية وتجار واصحاب محلات يهود ولكن الغالبية العظمى من اليهود كانت من الفقراء الكادحين والمهنيين البدائيين وما كان يطلق عليهم بالتضخم اسم « صناع الأدوات المعدنية » ، ولكنهم في الحقيقة كانوا من صانعي الاقفال والسماكريين ممن اعتادوا ان يشكلوا أنفسهم جمعية يسمونها نقابة عمال المعادن . كان انتماء اولئك المعدمين للاتحاد بمثابة عون كبير لهم ، الا ان هذا لم يغير من الامر شيئاً . تصور هذه الملايين من السكان اليهود المعدمين والمشردين أي شعب لا يمتلك جذوراً في البنيان الاجتماعي للمجتمع : بلا وظائف وبلا ارزاق منظمة ، باعة متجولون وصانعوا زيجات يساومون على نسبة حصتهم من المهر .

بعد قيام الثورة الفرنسية تمتع اليهود بمساواة رسمية في نظر القانون في بلدان اوروبا الغربية . (انتخب ليونيل روتشيلد عام ١٨٤٧ أول نائب يهودي في مجلس العموم) . وصاحب هذه المساواة أمام القانون نمو في اندماج اليهود في المجتمع ، فحتى تلك الشرائح التي احتفظت بدينها ووعيمها اليهودي اصححت مندججة من خلال تبنيها لغة البلاد التي عاشت فيها واكتسبت مظهر المواطنة .

وعاش الملايين من اليهود في شرق الاوروبا ضمن مجتمعات مكتظة بالسكان ومنفصلة عن بيئاتها غير اليهودية . ولم تكن احياء اليهود ذات طابع رسمي ، فقد كان يسمح لليهود بالخروج منها وكانوا يخرجون منها بالطبع . ومهما يكن من أمر فقد عاشوا جماعات منغلقة يرتدون ملابس مميزة يطلقون لحام ويتكلمون لغتهم الخاصة ويطورون ثقافتهم وأديبهم . وفي الغالب ، كانت معرفتهم باللغة البولندية أو الروسية شبه بدائية وبقية اليديشية لغتهم التي ينطقون بها . كان هناك بالطبع أقلية من المثقفين اليهود الذين اندمجوا أكثر فأكثر ولم يميزوا في عاداتهم وتقاليدهم عن عادات وتقاليد المثقفين المحليين . ولكن تطور حياة الجماهير الفقيرة من اليهود المتدينين كان بطيئاً على مسار العصور . فهم ما زالوا يقومون بنوع من التجارة البدائية كالتي مارسها تجار القرن السادس والسابع عشر ، وبقية طقوسهم الدينية وشعائرهم قديمة وتنطوي على مفارقات تاريخية .

وصاحب عملية اندماج اليهود في أوروبا الغربية تحريرهم في نفس الوقت ، غير ان شيئاً من هذا لم يحدث في أوروبا الشرقية . وكان اليهود في روسيا ، بشكل خاص ، مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة . فلم يسمح لهم بالإقامة في روسيا الأصلية وإنما ضمن ما يسمى بالنطاق اليهودي وكذلك حرموا من تلك الأراضي وأغلقت في وجوههم بعض الوظائف . كان وضعهم أفضل بقليل من وضع الفلاحين الروس والبولنديين ، إلا ان الفلاحين لم يكونوا معرضين للمجازر المنتظمة والهبات المعادية للسامية والمذابح الواسعة التي كانت تحدث بصورة عفوية احياناً وبقتشجيع من السلطات المسؤولة في أغلب الأحيان . وانها لحقيقة مهمة ان كلمة « مذابح منتظمة » Pogroms هي من أصل روسي رغم انها دخلت الآن معظم اللغات الأوروبية . قبل ٥ سنوات فقط من نشوب الثورة الروسية ووقعت محاكمة بايلس Bayliss في كييف وهي المذبحة التي لحصت وضع اليهود في ظل حكم القيصر . ففي هذه المحاكمة - التي سميت بمحاكمة اغتيال الشعائر الدينية - كان بايلس اليهودي قد اتهم بقتل طفل مسيحي بريء كي يستخدم

دعه في صنع خبز الفطير في العيد. وفي جو من الخنق والاهتياج ظهرت « اثبات السود » وهي جمعيات من الرجعيين الارهابيين او من الارثوذكس المتعصبين الذين تبنتهم القيصرية فاصبحوا يميثون في الارض فساداً . هنا يتبين التفاوت المذهل بين الوجود اليهودي المتمثل في روسيا وبين الحياة اليهودية في الغرب . ويمكن ان يقال انه يوجد في الغرب ايضاً ، هيجان ضد السامية - قضية دريفوس - غير ان هذا كان على مستوى مغاير من التطور الاجتماعي والسياسي . على أية حال ، مما لا شك فيه ان قضية دريفوس شكلت نقطة تحول في تاريخ اليهود في اوروبيا الغربية . وقد عانت الحركة التقدمية للتحرر في اواخر القرن التاسع عشر من نكسة كبيرة ، وبدأت اللاسامية باظهار نفسها ثم اخذت بالنمو الى ان بلغت درجة مروعة في العهد النازي . لقد جلب القرن الذي تلا الثورة الفرنسية التنوير والتقدم ومعهما اندماج اليهود ببيئاتهم . أما في شرق اوروبيا فقد كان قرن الاضطهاد والعزلة لليهود .

هكذا كانت حالة اليهود في التسعينات من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، حين بدأت الحركة الاشتراكية الديمقراطية بالانتشار ، واخذت تكتسب طابعها الجماهيري . وكثيراً ما يقال ان الموقف من اليهود ، كما نلاحظه في روسيا اليوم ، ينسجم مع ما حققه لينين والبلاشفة . واصبح من حكم العادة ، خاصة بين اليهود ، ان يلام البلاشفة والشيوعيون على كل التعاسة التي لحقت باخوانهم المتدينين في روسيا . على أننا عندما نرجع الى المصادر الاولية وعندما نتفحص الوثائق ، نجد انه حتى قيام الثورة كان البلاشفة والمناشفة وحتى الثوريون الاجتماعيون - جميع تيارات الاشتراكية الروسية - متفقين على طريقة معالجة المشكلة اليهودية . وفي هذا الامر كان لينين والبلاشفي الروسي ومارتوف المنشفي اليهودي ، أو تروتسكي (اليهودي) من ذهنية واحدة . لقد استمدوا افكارهم عن اليهود من الماركسيين الغربيين ، ومن ماركس وانجلز على وجه التحديد . فقد قال ماركس في احدي مقالاته الشهيرة عن المشكلة اليهودية التي كتبت في

اربعينات القرن التاسع عشر ان السؤال عن تحرير اليهود لم يعد قائماً بشكل منفصل ، فيجب ان توجه كل المساعي نحو تحرير المجتمع الاوروبي وخاصة المجتمع الغربي من الرأسمالية . فعندما يزاح النير الثقيل للاضطهاد الرأسمالي ينال كل اعضاء المجتمع بمن فيهم اليهود المساواة والحرية .

وفي الكتابات الماركسية المبكرة حول هذا الموضوع ، كان هناك عداء خفي تجاه اليهود لا أنهم يهود بل بوصفهم قطاعاً بارزاً ومشيراً من البرجوازية في غرب اوروبا . لقد كانت عائلة روتشيلد رمزاً للقوة والتسلط المالي للبرجوازية اليهودية بين الطبقة الوسطى من الفرنسيين والانجليز والامان . ومن ناحية أخرى فقد كان القادة البارزون للاشتراكية أمثال ماركس ولاسال من أصل يهودي . ولكن مرة أخرى ، وباتجاه نهاية القرن التاسع عشر اصبحت الحركة الاشتراكية منهمكة بأدائها بالمشكلة اليهودية حينما بدأت اللاسامية بالظهور في المجتمع الغربي . وعندئذ كتب اغسط بيبل ، وهو قائد عظيم للاشتراكية الديمقراطية الألمانية ، مؤلفه الشهير عن اللاسامية مطلقاً عليهم اسم « اشتراكية الحقى » . لقد كان تفهمه البارع لجوانب المشكلة اكثر من مجرد ومضه ذهنية عابرة - فالحقيقة هي ان اليهود قاموا بدور تفاخري بين أصحاب البنوك والتجار مما آثار العداوة ضدهم بين الطبقات الاقرب في المجتمع الغربي . وحاول بيبل والاشتراكيون الآخرون ومن بينهم كاوتسكي ان يوضحوا للشغيلة بأن عليهم ان يوجهوا نضالهم ضد البرجوازية ككل لا ضد البرجوازية اليهودية فحسب والتي كانت تشكل في النهاية ، جزء من الطبقة الرأسمالية . كانت هذه هي الاشتراكية الحقيقية ، أما الذين يعمدون إلى تغيير البنيان الاجتماعي بالتحول ضد بعض الاعضاء - الأعضاء اليهود - من الطبقة المضطهدة فاولئك هم الحقى . وإذا ما انعمنا النظر في الأحداث الماضية يمكننا ان ندرك كم كان بيبل Bebel ورفاقه بعيدي النظر عندما أشاروا الى ان الرأسماليين في اوروبا الغربية كانوا على استعداد لان يضحوا بأخوانهم اليهود ككبش فداء بل انهم كانوا مهياً لتحريرض العمال

وصغار اصحاب المحلات ضد البورجوازية اليهودية كمي ينقدوا حياتهم واملاكهم الشخصية . فهذا سيكون أيسر طريق كمي يمسدوا انفسهم عن البغض الدفين للطبقة المضطهدة .

لم يكن هناك عمال يهود في اوروبا الغربية وان وجدوا فهم قلة وبالتالي لم يكن هناك حركة للطبقة العاملة اليهودية . وقد ثابر القادة الاشتراكيون على فكرة ان الجواب على المسألة اليهودية انما يكون في الاندماج الكلي . في غضون ذلك كان لينين ورفاقه فخورين باعلان انفسهم تلاميذ للديمقراطية الاجتماعية الالمانية ولهذا فقد آمنوا بأن المشكلة ستحل في روسيا ايضاً عن طريق الاندماج بالاستيعاب الشامل للمجتمعات اليهودية ضمن المجتمع الاشتراكي العظيم . وسرعان ما لاحظوا ان المشكلة في الشرق هي أشد عسراً منها في الغرب وذلك ، بالتحديد ، لأن اليهود الفقراء والشغيلة والشرائح الأدنى في الطبقة المتوسطة عاشوا في مناطق معزولة وفي احياء مكنظة تفتتج اسلوبها الخاص في الحياة . وبالرغم من ذلك كان لينين ومارتوف ، مصممين على دفع اليهود للنضال مع رفاقهم الروس ضد القيصرية وضد النظام القديم الذي حكم اوروبا الشرقية . وقد كانت هذه هي نفس النظرة التي حملتها امرأة ثورية عظيمة من أصل يهودي وهي روزا لوكسمبرغ التي اصرت اكثر من لينين او مارتوف ، على اندماج اليهود .

وفي غضون ذلك ايضاً بدأت الصهيونية بالتطور كحركة سياسية ، مستندة بشكل رئيسي الى دعم الجماعات اليهودية في البلدان الغربية . ويجب ان يلاحظ ان الاغلبية العظمى من يهود اوروبا الشرقيين ، كانوا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، من المعارضين للصهيونية . وهذه حقيقة يندر ان يدركها معظم اليهود في الغرب . كان الصهيونيون يشكلون اقلية كبيرة في الجزء الذين نعيش فيه ولكنهم لم ينجحوا قط في جذب الاغلبية من بني دينهم . وكان الشغيلة أشد

اعداء الصهيونية تعصبا ، اولئك الذين تكلموا البيديشية واعتبروا أنفسهم من اليهود وهم يشكلون أكثر الاعداء تشدداً في معارضتهم لفكرة الهجرة من شرق أوروبا الى فلسطين .

وشهد عام ١٩٣٩ آخر اقتراع لانتخاب قادة الطوائف اليهودية (Kehilas) من قبل السكان اليهود في بولندا. لقد اعتبر الشيوعيون وهم ذوو نفوذ كبير وقتذاك ، ان الـ Kehilas مؤسسات دينية ومن ثم فقد قاطعوا الانتخابات . واشترك حزب البولند Bund ، حزب الطبقة العاملة اليهودية ، والذي يكن عداء شديداً للصهيونية ، اشترك في الانتخابات ونال الاغلبية العظمى من الاصوات . ولم يكن هناك سوى قطاع صغير نسبياً من الحركة الاشتراكية وهو يوالي صهيون Poaley Zion حاول ان يقرن الاشتراكية بالصهيونية . وغالباً ما ينظر الرأي العام اليهودي في الغرب الى المعاداة للصهيونية بانها معاداة للسامية . ولكن يهود أوروبا الشرقية ، بموجب هذه النظرة ، لا ساميون وهو أمر سخيف بالطبع .

هذه المعارضة اليهودية للصهيونية كانت معارضة مفاجئة فقد فشلت وانتهت بهلاك روحي لليهود . لقد رأى أعداء الصهيونية في فكرة الاخلاء عن طريق الهجرة الجماعية من الاقطار القاطنين فيها والتي عاش فيها اجدادهم لقرون عديدة رأوا في هذه الفكرة تخلياً عن حقوقهم ، وكذلك رضوخاً للماديين للسامية .

وبدا لهم ان اللاسامية تنتصر من خلال الصهيونية فالاخيرة اعترفت بشرعية وصحة الصرخة القديمة « ايها اليهود اخرجوا ا » . لقد كان الصهيونيون موافقين على « الخروج » .

وسرى بين يهود شرق أوروبا شعور اصبح فيما بعد شعوراً عالمياً بأن لا شيء يمكن له ان يخفف من التحيز والاضطهاد الذي يتعرض له اليهود غير قلب نظام الحكم القيصري . ومن ثم كان لليهود دور بارز في الحركة الثورية .

ولكن عندما نشبت الثورة كان التحول المفاجيء للمجتمع أثر مؤلماً ومشتتاً على قطاع أساسي من السكان اليهود . على ان عدداً كبيراً من اليهود في روسيا كانوا من صفار أصحاب المحلات والحرفيين والمضاربين ومن ثم فان ثورة « الحاجة » قصدت الى إعادة بنساء البنيان الكلي لحياتهم . فها توخى الاشتراكيون تحقيقه هو جعل اليهود قوى منتجة وذلك بتحويلهم الى عمال مصانع ومزارعين ، أي الى قوة عمل حديثة . ووجد البقال اليهودي نفسه على شفير الهاوية ، فالنظام الجديد لم يحسن من أمره ، حقاً انه حرره من الخوف من الهازر والاضطهاد ولكنه هدد طريقة حياته كرجل متوسط الحال ، وكناسجر بدائي . وفي عشرينات هذا القرن ، بدأ البلاشفة بتشجيع اليهود على الاستيطان في أراض المستعمرات اليهودية في كرميا Crimea ، كرسون Kherson وبيروبيدجان Birobidjan . ولقد شاهدت أثناء زيارتي لهذه المستعمرات اليهود الضخمة التي قام بها بعض المثاليين من غير اليهود « Goyim » وآخرون من اليهود المتحمسين كي يحولوا جزءاً ، على الأقل ، من السكان اليهود الى مزارعين صالحين . ووضعت استثمارات كبيرة وجهود هائلة لهذه المهمة ، مهمة تغيير عقلية الـ Luftmensch . فقد كان يتوقع منه ان ينبذ فن وأحاييل التجارة الصغيرة وان يلقن تدريجياً فن حراثة وعزق التربة . ولكن كل هذه الجهود في تحويل التاجر الى مزارع باءت بالفشل لسبب بسيط ، وهو ان اليهود ، لم يكونوا مهياً لمثل هذا التغيير العميق والمعقد في طريقة عيشهم الشاملة . وحتى اليوم تعيش في اسرائيل اقلية من السكان ، فقط على فلاحه الاراضي في الكيبوتز ، فالاغلبية العظمى من اليهود لا تزال تندفع الى المدن وتفضل ان تكون مدنية على ان تكون من طبقة المزارعين في الريف . ولا غرابة في ذلك ، فقد كان اليهود لقرون عديدة يقطنون المدن واصبح التقليد المدني طبيعة ثانية لهم . ولم يهاجر من روسيا سوى أشد الصهيونيين مثالية ، اولئك الذين أرادوا الإقامة على التربة المقدسة اصهيون ، هؤلاء فقط هم الذين هاجروا وحملوا المهرات . أما الذين بقوا في الاتحاد السوفياتي فلم يكونوا ميالين الى ان يصبحوا مزارعين فكان عليهم أن

يدخلوا الى ميدان الصناعة . وأصبح العديد منهم عمالاً في مصانع كبيرة ومسح ذلك فقد بقي هؤلاء قلة . وأصبحت الغالبية العظمى منهم بتقاليدهم المدنية ومستواهم الثقافي المتفوق على السكان الروس ، أصبحوا من العمال ذوي الياقات البيضاء فدخلوا بأعداد كبيرة في الوظائف البروقراطية التي تلت الثورة في الحزب والدوائر الحكومية والمؤسسات . ولعبوا أيضاً دوراً عظيماً في المجال الأكاديمي - فحق اليوم ، ورغم كل الاحتجاج الصارخ ، الذي له ما يبرره أحياناً ، يوجد تحيز ضد السامية ، وهناك أكثر من ٢٥٠٠٠٠ استاذ يهودي أكاديمي في الاتحاد السوفياتي . وبالطبع بدأت هذه العملية في التعليم العالي الشامل بعد عام ١٩١٧ عندما فتحت ابواب الجامعات الروسية امام الطلبة اليهود .

وعلى الرغم من كل هذا ، وحتى في أشد فترات الثورة بطولة كان هناك تيار خفي قديم ومتواصل من اللسامية يسري بين السكان الروس . إن نبحث في مصدر هذا السم البغيض ؟ يتوجب علينا ان نبحث فيه قبل كل شيء في التخلف والجهل بين الفلاحين الروس وحتى في قطاع من العمال المدنيين أيضاً . كان هناك النفوذ الحاسم لكنيسة الارثوذكس الشرقيين وهي أكثر الكنائس اعاققة للتقدم بين كل كنائس أوروبا . وكان هناك اسطورة مسيحية متأصلة بعمق وهي ان اليهود هم الذين صلبوا المسيح . ان هذه الاسطورة ، كما نلاحظ اليوم ، نفذت في عقل الحضارة المسيحية كلها بشكل أكثر شمولاً بما تصور الناس ، حتى قبل خمسين عاماً . (كان هناك أمل يراود الناس من ان عصرنا الحاضر عصر العلم ، كان يحور نفسه مبعداً بذلك الاجحاف الديني والتأثير المهلك للاساطير والخرافات) .

وكما هو الحال في بي كل مكان ، كذلك في روسيا ، فان الحقد والتعيز اللذين غرسا في اذهان الشعب عبر القرون ، لم يكن من الممكن اقتلاعها في مسار سنوات قليلة أو حتى في عشرات السنين . غير ان هذا لم يكن كل شيء فقد كان هناك عنصر اخر غذى نزعة العداوة للسامية عند الجماهير ، فقد كان الفلاح

الروسي الفقير ينظر بعين الريبة الى البقال اليهودي في القرية أو صاحب الحانة الذي كانت تجارته تقوم في الغالب على الاحتيال . ولربما حاول اليهودي ، في ظل هذا البؤس المطبق ، ان يخفف من فقره على حساب الفلاح الروسي الذي كان بائساً مثله . فهنا يمكن ان يلاحظ تكوين الخصومة بين الفلاح الفقير أو العامل تجاه جاره اليهودي .

وعلى مستوى مختلف اثار المثقفون اليهود أو العمال ذوو الياقات البيضاء الذين شغلوا المناصب العالية في الحزب والدولة ، في الجيش والمؤسسات المدنية وفي النظام التعليمي ، والمناصب البارزة في الصحافة والسينما والمسرح ، اثاروا نوعاً من الحسد او ما يسمى « بغيرة المهنة » وهناك توضيح يلفت النظر لهذا الجو في المراسلات المتبادلة بين تروتسكي ولينين ابان الحرب . وفيما بعد كتب تروتسكي وهو قائد للجيش الاحمر ورئيس دائرة الدفاع حينذاك كتب رسالة سرية من الجبهة طلب بموجبها ان يسحب اليهود من مكاتبهم ووظائفهم الادارية والعسكرية الآمنة وينقلوا الى الجبهات . ومضى تروتسكي يقول ان هناك هميات بين الجنود حول وجود الكثير من اليهود في اماكن منعزلة وآمنة اكثر من خط الجبهة في الميدان . وحتى اثناء الحرب الاهلية ، عندما كان الجيش الاحمر يحمي اليهود من مجازر الحرس الابيض كان هناك هذا التوتر المفجع ، ولكنه انساني ومفهوم ، في موقف الروسي العسادي تجاه اليهودي « المميز » بشكل أو بآخر .

وسلك البلاشفة في عهد لينين مسلكاً دعاوياً قوياً مضاداً للقومية والدين والقساوسة . وقد قاموا بذلك بتزاهة كاملة شاجبين ومحاولين استئصال أي نوع من القومية واوها الشوفينية الروسية العظيمة ، معلنين المساواة بين جميع الامم الصغيرة والاقليات القومية . وسمح لليهود ، بل شجعوا ، بنشر صحفهم وأديهم باللغة اليديشية وان يطوروا مسرحهم - وهو من أحسن ما عرفت .

ومن المحتمل ان يكون الناس قد نسوا أن اول مسرح عبري عظيم في

التاريخ وهو الـ Habima «الهابيا» قد أسس في روسيا بمبادرة من المسؤول عن الثقافة وهو أ. ف. لوناشرسكي Lunacharsky. ويوجد، بالتأكيد، عدم ترابط في هذه الناحية. فقد كان البلاشفة معارضين، من حيث المبدأ، لفكرة احياء العبرية القائمة كلغة ميتة. وعندما قدمت فرقة الهابيا مسرحية Ansky انسكي الرمزية ديبوك Dybbuk سمعت الاحتجاجات ضد الاساطير الدينية الكلاسيكية على مسرح روسيا الحمراء.

من الواضح ان البلاشفة قد اسرفوا في تفاؤلهم بالنسبة لفرص حل المشكلة اليهودية. ولم يكونوا الوحيدين في استخفافهم بعمق غريزة اللاسامية في العادات والتقاليد المسيحية. لقد توهموا أن ثورتهم ستكون مقدمة لثورة عالمية عريضة فظنوا أن كل القوى التقدمية في المانيا وفرنسا، ستساعدهم للتقدم للامام وان مرض اللاسامية سوف يختفي بالتالي في اوربا الاشتراكية، المزدهرة والمنظمة عقلاً. إلا ان هذا لم يحدث وبقيت الثورة الروسية معزولة. اما الثورة الالمانية فقد واجهت الهزيمة وبذلك لم تقدم اوربا لمساعدة الثورة الروسية. وهكذا تركت روسيا وحيدة، تتحمل نتائج تخلفها الذي ورثته عن القيصرية منذ عصور الارثوذكس الشرقيين وتتحمل أيضاً نتائج اميتها، وفقرها وبربريتها. في ظل هذه الظروف اصبحت كل العداوات الموجودة في المجتمع واضحة بشكل بارز، ومن بينها العداوة بين اليهودي وغير اليهودي. ومن هنا لا ينبغي لأحد ان يتصور أن المشكلة اليهودية وجدت في فراغ وبمعزل عما كان يجري في المجتمع السوفياتي. لقد كانت مغمورة في بنيان ذلك المجتمع ومرتبطة اوثق الأرتباط بتطوره وتحوله، في نموه وتقدمه، في تراجعته وتقدمه الجديد.

ان المشكلة التي نحن بصدد حلها تشكل جزءاً عضوياً من المشهد الروسي الشامل ولذا فليس من السهل ايجاد طريق للتمعن في كل مظاهرها. وسأحاول الآن ان اتعرض لأمر تطور نظام الحزب الواحد على مصير اليهود.

كانت قضية استئثار الحزب بجميع القضايا غير واردة في عهد لينين. ولكن

نظام الحزب الواحد كان ينذر بالسوء من قبل . فقد كان النقاش الحر والمفتوح قائماً حتى عام ١٩٢٤ وامتد الى السنتين أو الثلاث التالية وكان اضطهاد الاحزاب الاخرى يسير بشكل تدريجي . ولندل على ذلك بمثل الحزب الاشتراكي الصهيوني « بوالي صهيون » Poaley Zion ، الذي لم يقم بصورة شرعية حتى عام ١٩٢٥ أو ١٩٢٦ . وبالرغم من معارضة البلاشفة للصهيونية فان الاضطهاد الشامل للرأي الصهيوني لم يكن ضمن برنامجهم . وسبق لي ان ناقشت في كتيبي . عن ستالين وعروتسكي العملية التي نتجت من الاختفاء التدريجي لكل الاحزاب السياسية . هنا استطيع ان اضيف ، ان هذه العملية قادت او توامت كياً ومنطقياً الى تأسيس نظام الحزب الواحد بين اليهود أيضاً . لقد قمعت كل الاحزاب اليهودية «البوند» ، « بوالي صهيون » وتجمعات صهيونية اخرى . ويمكن ان تكون الصهيونية قد اعتبرت بنظر الثورة مغامرة ايدولوجيا أو انها غير مرغوب فيها على الاقل ، ويحد هذا الامر ، إلى حد ما ، مبرراً كبيراً له . فالصهيونية لم تضع كل امالها على الاشتراكية والتضامن الاممي وانما وضعت امالها على تكوين دولة يهودية مستقلة ، فلم تهدف إلى خلق مستقبل افضل لجميع الشعوب السوفياتية في الاتحاد السوفياتي بل اندفعت إلى تهجير جماعة منظمة من الاتحاد السوفياتي . وباختصار ، فان الصهيونية ادارت ظهرها للثورة أو انها عمدت ، في احسن الاحوال إلى تجاهلها . غير انه لم يكن هناك سبب موضوعي لاعتبار الصهيونية عقيدة خطيرة ومخرية . أن الحجبة القائلة بان الصهيونية تهدد الثورة الروسية زائفة وسخيفة بالنظر الى ضعف وعجز التجمعات اليهودية في روسيا بكاملها . والحقيقة انه لا مكان لاي هرطقة أو تعدد في النظرات أو التيارات السياسية في ظل نظام الحزب الوطني التوتاليتاري . وكما يقول المثل اليهودي القديم : « كما تجري الامور بين المسيحيين كذلك عليها ان تجري بين اليهود » .

ومنذ ان سمح بوجود حزب واحد ووجهة نظر واحدة لغير اليهود اجيز كذلك لوجهة نظر واحدة فقط أن تسود المجتمع اليهودي . وما يحذر ذكره انه لم يكن أكثر المنصبين والمؤيدين لقمع الاحزاب اليهودية من الروس وانما

كانوا من الشيوعيين اليهود، الجناح اليهودي من الحزب الشيوعي، (يفسكتسيا) (Yevseksia) . وكنت في روسيا في وقت كانت فيه هذه المشاكل تناقش بجرارة وشاهدت مراراً كيف يتجاهل البلاشفة الروس ، ومن بينهم غائيسل كالنين Kalinin ، رئيس الدولة ، مع الرفاق اليهود محاولين ان يخففوا من عداوتهم الشديدة تجاه الفكرة اليهودية وتجاه بقايا البوند وحتى تجاه رجال الدين اليهود . لكن الشيوعيين اليهود شعروا بان عليهم ان يكونوا أكثر تمسكاً بعقيدتهم واصالة وتصميماً من زملائهم الروس . ونحن في العادة نتشدد مع من تختلف معهم ، في بيئتنا ، بدرجة أكثر من خصومنا البعيدين عنا . وبنفس الدلالة يمكن ان تذكر ان جورجيجيان دجو كاشفيلي Georgian Djugashvili وابنساء بلدته اظهروا حماساً وغضباً كبيرين في اضطهاد « القومية المحلية » في تفلس .

وواكب نظام الحزب الواحد تطور وتباور الستالينية . ان سنوات العزلة ، وخيبة الامل من تلقي العون من الخارج ، وانهزام الشيوعية في أوروبا - كل هذه قد مهدت لمذهب ستالين في بناء الاشتراكية في بلد واحد . كان رد فعل البلاشفة على عزلة روسيا ان سلكوا ايدولوجية العزلة . فقد صنعوا من الحاجة فضيلة ، فلأنهم قُطِعوا عن العالم ، قاموا بمقاطعة العالم .

ونحن نعرف الان إلى أي مدى قد تخلى البلاشفة عن تقاليدهم الاممية عندما ساروا في طريق بناء الاشتراكية في البلد الواحد الذي اقامه ستالين . وعلى نحو ثابت تتسلل نزعة اللسامية في روسيا ، كما في المغرب ، على السطح وفي اوقات ردود الفعل وتتغذى وتنمو على الانفعالات القومية والكراهية . ولم ينفر ستالين الذي لم يكن ارضاً صعباً من استقلال الاتجاهات المعادية لليهودية في صراعاته مع المعارضة . وقد سرك المعرضون الستالينيون في البداية ، وبشكل مكتوم ، عن طريق التلميحات الغامضة والاشارات الضمنية ، حركوا الرأي المعادي للسامية وقربوه من السطح ، حتى زمن التطهيرات الكبرى حيث بلغ

اوجه الاول . وبلغت المسحة الباطنية المعادية للسامية من الشناعة في شكلها هذا حداً دفع بتروتسكي ، وهو الذي كان متحفظاً تجاه الموضوع ، الى الخروج عن طوره ، فكتب الى بوخارين في مارس ١٩٢٦ رسالة يقول فيها : « هل صحيح وهل من الممكن ان يجري تحريض في حزبنا ، في موسكو ، وفي خلايا العمال ، ضد السامية ودون ان تفرض العقوبات ؟ ولم يتسلم رداً على سؤال ناقم ومشابه لهذا طرح في اجتماع المكتب السياسي - كان هناك بعض الارتباك ونوع من اللامبالاة . ان بروز مكانة اليهود بين قادة المعارضة كان امراً حقيقياً . وصورهم الموظفون المخلصون لستالين بانهم « اميون بلا جذور وطنية » . وبما انهم ليسوا من ابناؤ روسيا الام فمن الطبيعي ان لا يكثرثوا للاشتركية في بلد واحد ، بلد الاسلاف . ان هذا النفاق بلغ حداً لم تعد فيه كلمة يهودي تلفظ اطلاقاً . ولكن أخذ بعين الاعتبار شجب مواقف اولئك الاميين الذين لا جذور وطنية لهم .

ومن جهة أخرى كان هنالك الكثير من اليهود في الادارة الستالينية ايضاً . فقد كان كاجانوفيتش Kaganovich اليهودي على رأس النظام الجماعي القسري في اوكرانيا الذي كان ينفذ بأكثر الطرق وحشية . وهنا ، يتكشف المأزق المأساوي الذي وقع به اليهود . فقد اضطهدوا في المدن ، لكونهم اميين بلا جذور وطنية ومعادين لتقدم الاشتركية في روسيا . وكانوا مكروهين من قبل الفلاحين في الريف الذين رأوا في اليهودي البلشفي كاجانوفيتش معذبهم الاكبر . والى جانب هذه التناقضات ، اضيفت تناقضات أخرى شائكة . فقد بقي التاجر الصغير واليهودي الذي يعمل بالمضاربة واليهودي الوسيط ، ييمون على وجوههم في هذه التغييرات الهائلة ، وبقي اليهودي يشير الاشتمزاز في نظر السكان الروس . ومن ناحية أخرى كان يوجد اليهود من اساتذة الجامعات والآخرين من الاطباء العظام من كانوا يعملون جيلاً من المثقفين ويشاركون في تطوير روسيا وتحضيرها الى حد كبير . كل هذا يشير الى ان التناقضات الكامنة في

المجتمع السوفييتي المتحول عمدت الى التأثير في اليهود بصورة اكثر حدة وقسوة وبما كان يمكن لها ان تؤثر في أي جماعة قومية او عنصرية في الاتحاد السوفييتي .

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية . وبالطبع كان اليهود خلال فترة التسوية والمعاهدة القصيرة بين هتلر وستالين في موقع تطلق عليهم النيران من كل جانب . فلذا اصبح وضعهم غير مرض اطلاقاً . وكان ذلك قد تجسد في استقالة وزير الخارجية مكسيم ليتفينوف M. Litvinov واحلال فياشلاف مولوتوف الروسي العظيم مكانه . كيف يمكن لليتفينوف اليهودي ان يوقع معاهدة دولية مع هتلر او ريبنترورب Ribbentrop ؟ ان هذه المهمة تتطلب رجلاً آرياً بحتاً . فثمة ما يشبه التلوث العرقي كان ينبعث من المانيا الى روسيا . وفي غضون ذلك ارسل ستالين ومولوتوف رسالة الى هتلر حول الصداقة الروسية - الالمانية « المعززة بالدماء » وهي الايام التي اعلن فيها ستالين انه كان يجرر « اخوانه في الدم » - الاوكرانيين - من الاضطهاد البولندي . ان مثل هذه العبارات العنصرية قد « اغنت » اللهجة الستالينية . وسرعان ما استعوض عنها بلغة روسية مغالية في قوميتها ، شديدة التعجب . ثم جاء الحادي والعشرون من حزيران عام ١٩٤١ واصبح نصير الالاسامية هو العسكو اللدود لروسيا السوفييتية مرة أخرى .

وأخذت الاجواء المتوترة في المجتمع السوفييتي تبدو حادة بسبب التقلبات التي مرت بباروسيا قبل الحرب وبسبب جرائم نظام التجميع القسري ومأساة التطهير الكبري وتهجير الجموع الغفيرة الى معسكرات الاعتقال بحيث تراءى البنيان الكلي - الاخلاقي والاقتصادي والسياسي - في بداية الحرب وكأنه على شفير الهاوية . واستقبل هتلر وجيوشه بالغبطة والمرح من قبل السكان في اوكرانيا واستمر هذا الى ان اظهر النازيون للاوكرانيين ماهيتهم الشريرة الحقيقية . وسرعان ما توصل الاوكرانيون الى نتيجة مرة خلصوا منها الى ان

ستالين في اسوأ احواله يبقى مفضلاً على هتلر . ومهما يكن من أمر ، فقد جلب الغزو النازي لاورانيا وغرب روسيا موجة جديدة وقوية من العداة السامية . فقد بقيت الكراهية القديمة تغلي تحت السطح فهي تسكن وتخمد ولكنها لا تنطفئ ابداً ؛ وخشي ستالين بدوره ، وكذلك حكومته ، من انه يمكن ان ينظر للحرب ضد النازيين - من قبل الاوكرانيين والروس - على انها حرب تخاض من أجل الدفاع عن اليهود . وكانت النداءات الحادة التي يبثها الراديو النازي والدعاية النازية وكذلك الكراسات والدعايات تعلن ، بلا هوادة ، للسكان في روسيا ، ان هذه مكيدة يهودية ! انكم تخوضون الحرب لمصلحة اليهود ! ، وغالباً ما بدت هذه الحجسة المغلوطة مقبولة لدى اعداد كبيرة من الروس والاورانيين .

كان ستالين تواقاً لإبطال مفعول هذه الدعاية ، وبدأ بتنفيذ ذلك بطريقته الملتوية والماكرة المعروف بها . فبدلاً من التصدي لها بصراحة واظهار مدى غوغائيتها فقد حاول ان يمثال بالسر على الموضوع الرهيب ويتغاضى عنه كلياً . فعلى امتداد الحرب العالمية الثانية نادراً ما كتبت الصحف الروسية عن مصير اليهود في ظل الحكم النازي وقلما ذكرت مذابح اوشويتز وماجدانك Auschwitz Majdanek الشهيرة . اما الجموع الغفيرة من المحاربين في الاتحاد السوفياتي فنادراً ما اعطيت نبذة عن اباداة اليهود ، وان حدث ذلك فانما يتم بطريقة عرضية ومختصرة قدر الامكان . لقد كان ستالين - وهو بطبعه لا يثق بشعبه ، لا بل يزدرجه اقل اندفاعاً منه في أى وقت مضى نحو العمل على رفع روحهم المعنوية . وكانت دعاوته في شهور الهزيمة تدار بطريقة غير متقنة وبدت عديمة الجدوى . فقد سببت الفوضى الحاصلة ، أحياناً ، نتائج مفجعة لليهود كان من الممكن تفاديها . ولنعطي مثلاً على ذلك : عندما عرضت

الحكومة السوفياتية عام ١٩٤٢ اجلاء يهود مدينة تاغنروج (Taganrog) - وهي مدينة صناعية ممتدة على بحر آزوف - قبل زحف الجيوش النازية اليها رفض يهود المدينة ان يتحركوا ، إذ لم يصدقوا أن الاممة الالمانية ، التي انجبت جوته وبيتهوفن ، اممة الشعراء والمفكرين ، اممة ماركس وانجلز ، يمكن ان تكون مسؤولة عن هذه الجرائم تجاه اليهود ، كما تخبرهم السلطات السوفياتية بذلك الان . لم يصدق اليهود دعاية ستالين حتى في الاوقات التي كانت فيها تلك الدعاية صادقة . لقد محقوا جميعاً في ظل الاحتلال الالمانى ، أما الذي جلوا عن المدينة فقد بقوا احياء .

وعلينا ان نتذكر انه بالرغم من كل الجرائم التي ارتكبها ستالين فان هونفسه الذى أمر بتقديم المساعدة للميونين ونصف المليون من اليهود في المناطق المحتلة في روسيا وذلك بنقلهم إلى المناطق الداخلية من البلاد ، الأمر الذي اتقدم من معسكرات الاعتقال النازية ومن غرف الغاز . وهذه حقيقة يميل القومي اليهودي والصحافة الصهيونية إلى تناسيها . لقد وجد هؤلاء اليهود انفسهم في موقف غريب ، فقد اصبحوا بعد اخلائهم السريع وانتقالهم إلى كازخستان واوزبكستان وإلى جمهوريات وسط آسيا ، أصبحوا في حالة ارتباك ويأس وألقى بهم في اوساط غير مألوفة لديهم وهكذا اقتلعوا من جذورهم مرة اخرى . وكان عليهم ان يكسبوا قوتهم وسط فقر مدقع ونقصان في الطعام ، وسط مجاعة حقيقية ، وبذلك أصبحوا ، من جديد بارزين في الاسواق السوداء ، لقد عادوا ساجسة . (روى لي هذه القصة العديد من اصدقاءى البولنديين الذين ابعدوا عن هذه المناطق من روسيا) . فليس من العدالة ان يلام اليهود الذين أدخلوا بلادهم . فهم ليسوا بزارعين أو فلاحين حتى يمكنهم ان يظفروا بشيء من الارض حتى ولو في اسوأ الظروف . ولم يكن معظمهم من العمال الصناعيين المهرة بل كان جلهم ممن لا يستفاد منه في الجيش لكبر سنه . ان شيئاً ما من عقلية التاجر كان يلازمهم - وترايد هذا الآن بسبب الاضطراب المطلق - وهو الذى يختزن القليل من الشاي والسكر وبعض أكياس القمح

والبطاطس وبييعها باحسن سعر يمكنه الحصول عليه . أما جميع الذين حول السكان اليهود من الشفيلة الروس فقد كانوا يموتون جوعاً . وقد اعطى هذا من جديد ، دافعاً لموجة العداة للسامية . ومع ذلك ، فقد انقذ هؤلاء المليونان أو الثلاثة من اليهود الذين يشكلون الاغلبية العظمى من الطوائف اليهودية في روسيا ، من المذابح النازية . وكانت اعصاب الامة ، في اعقاب الحرب متوترة من جديد . فالى جانب الفوضى والانهاك والضعف اضيفت عام ١٩٤٦ مصيبة اخرى ، فقد اصيب موسم الحصاد بكارثة لم تشهد مثلها روسيا منذ نصف قرن . كان العجز منتشرأ ودب اليأس في كل مكان عندما أصبح الناس يحصون مواتهم ! لقد خسروا عشرين مليون رجل في القتال ! جاء ادراك هذه الخسارة الفادحة بطيئاً في البدء بيد انه سرعان ما اهتزت الامة بقسوة لا تحتمل . لم يعد احد يبصر رجلاً في المزارع أو الحقول الروسية فلم يكن يوجد سوى النساء والمسنين والاطفال يفلحون الارض وينتجون محاصيل قليلة لا تكاد تكفي لسد حاجة الامة من الطعام . ورفعت جميع القيود على تشغيل الاحداث وكانت الاوامر اليومية تنصب على العمل ومضاعفة العمل .

كانت العداوات القديمة والجديدة حادة ومؤلمة . وبدأ الصراع السري مرة أخرى بين تيارين عظيمين في طريقة التفكير وفي الايديولوجية في المجتمع السوفياتي ، انه الصراع بين القومية والامية . واذا لم يفتن المرء دوماً الى حقيقة ان هذا الصراع يشكل الظاهرة الاساسية في المجتمع السوفياتي ، فسوف يفقد بذلك الشرط الاساسي لفهم تاريخ مرحلة ستالين والاحداث التي تلتها والموقع الذي تشغله المشكلة اليهودية في الحياة السوفياتية . فهناك القوميون والمعادون للسامية بين الفلاحين والعمال والطبقة البروقراطية والمثقفين . ويتواجد الامميون وبالتالي اعداء اللساميين في

جميع تلك الشرائح من المجتمع ايضاً .

وعلينا الآن ان ننقل اهتمامنا الى فصل من سياسة ستالين الخارجية التي ربما يبدو انها تتناقض لا مع موقفه الخاص من اليهود فحسب بل مع النظرة التقليدية البلشفية للصهيونية .

عندما كانت اسرائيل تشكل نفسها كدولة عام ١٩٤٨ شاهدنا حالة مثيرة تلاقى فيها الروس والامريكيون في موقعها—وهما الحصان اللدودان—وقد عملاً معاً على طرد الانجليز من الشرق الاوسط ، وقاموا معاً بدور القابلة في عملية ولادة اسرائيل .

ومهما كانت توقعات ستالين، فان اسرائيل تبقى مدينة له بوجودها المستقل حتى وان بدا ذلك مثيراً للدهشة . وجاء تسليح الهاغانا بصورة رئيسية من مصانع الاسلحة في تشيكوسلافاكيا الستالينية . ان المساعدة والعون المادي الفعال الذي كان يعطيه ستالين لليهود قد بدا بنظر السياسيين الغربيين امراً شريماً ، أثار الحقد وسحرك قدراً من الكراهية نحو اليهود .

ثم جاءت الحرب الباردة . لقد وجدت اسرائيل نفسها متغلخلة في مؤسساتها، ومحاطة بعالم عربي معاد، متخوفة من مستقبلها ومعتمدة على المساعدات الاقتصادية لليهود الاميركيين مما دفعها للتحالف فعلاً مع الولايات المتحدة . وبالطبع فهذا لم يكن ليلقى إلا العداوة من روسيا . اما اليهود الروس فقد استقبلوا جولدا مائير ، اول سفيرة لدولة اسرائيل في موسكو ، بالابتهاج واعلان التضامن مع اسرائيل . ورأى ستالين الذي ربما كان يراقب هذا المشهد غير المؤلف من نافذة قصر الكرملين رأى في اليهود عنصر غير ثابت ، فاسرائيل قابله بالجحود والنكران (وهذا صحيح الى حد ما) اما يهود الاتحاد السوفياتي

فليسوا أهلاً للثقة. وهكذا بدأ ستالين يضطهد اليهود ويشتهمم بشق التهم وذلك تحسباً لامكانية نشوب صراع مع الولايات المتحدة أو من اندلاع الحرب بين روسيا والغرب فاتهمهم بأنهم شعب بلا وطن وبلا جذور وطنية . وكان يقال ان لكل يهودي اقرباء في الغرب وفي امريكا في الغالب . فكيف يمكن الوثوق باليهودي كمواطن روسي يحب بلاده حقيقة ؟ وهل يمكن التأكد بصورة مطلقة ، من ان ولاءه في الاحوال الطارئة سيكون للدولة السوفياتية ؟ مثل هذه كانت وجهة النظر الستالينية ، بدون شك .

وعلى المرء ان يسلم ، اذا ما قام بتحليل موضوعي ومترن لكامل الموقف كما تجلى في جو الحرب الباردة ، بان هذا النوع من الحجج ، وهو غريب على ، لا يخلو اطلاقاً من المنطق . لقد كان ليهود روسيا ولع بأمريكا وبقربائهم فيها . واذا استطاع المرء ان يتخيل ، مثلاً ، الجيوش الاميركية تزحف على روسيا ، كما فعلت الجيوش الالمانية ، فاربما ستلقى هذه الجيوش الكثير من التعاطف اليهودي وبعضاً من المتعاونين بين اليهود المحليين . وليس هناك من حاجة لانكار هذا الأمر . ان ما غاب عن ذهن ستالين هو السؤال الاساسي التالي : كيف يمكن ان يوجد في روسيا ، بعد مضي سنوات عديدة على الثورة ، من يشك في ولائهم للنظام السوفياتي ؟ واذا كانوا فعلاً غير اهل الثقة إلا يتوجب ، عندئذ ، توجيه اللوم الى الحكومة السوفياتية بدلاً من اليهود ؟ فلو سأل ستالين نفسه هذا السؤال فهل سيعترف بان حكمه وتحريفه للثورة هما اللومين ؟

مها يمكن من امر ، فقد كانت هذه مجموعة معقدة ومتشابكة من المسؤوليات والريبة والخوف. فقد تحولت المبادرات السياسية على يد ستالين ، بصرف النظر عن نوعها ، إلى أقصى اشكال العبث والوحشية والتهور . وهكذا فقد جوبه العالم بمشهد خسيس عندما خرج اليه ستالين بما يسمى « مؤامرة الاطباء » Doctors' Plot . فلقد أعلن في الثالث من يناير عام ١٩٥٣ عن اعتقال مفاجيء لتسعة من الاطباء الخصوصيين في قصر الكرملين واودعوا السجن بتهمة وضع السم لعدد من المرضى

اللامعين وكذلك للتخطيط لمزيد من الاغتيالات والتآمر على حياة المارشالات والجنرالات السوفيات من اجل تقويض دفاع البلد وكذلك بتهمة العمل مع المخابرات الاميركية والبريطانية والمنظمة اليهودية العالمية . كانت هناك تطييعات غامضة حول افشاءات أخرى وشبكة الوقوع وعن تشعب في المؤامرات ومآثم أخرى ارتكبها المتآمرون . ان الحملة التي لم تكبح ضد اليهود قدامت ، حسب بعض الروايات ، الى اجلاء كل اليهود عن اماكن اقامتهم واجبارهم على الاقامة في مكان ما في أقصى الشرق أو في بيروبيدجان .

لقد لقيت هذه الخطة الفشل شأنها بذلك شأن العديد من الخطط الدنيئة والضارة التي دبرها ستالين في السنوات الاخيرة من حياته ، واخفقت في لحظة وفاته . ثم بدأت عملية نقض الستالينية . كانت أول تحريك قامت به الحكومة الجديدة التي تولى رئاستها جورجي مالنكوف الذي كان يشغل منصب السكرتير الأول للحزب ايضاً ان اعلنت بطلان ما يسمى « بمؤامرة الاطباء » والغاشيا .

ودخل الاتحاد السوفياتي بموت ستالين طوراً جديداً وأصبح الصراع الجهادي والمستمر بين القومية والاممية واضعاً جلياً من جديد . وتبع موت ستالين ردة فعل معادية للخط القومي الشوفيني المعادي للسامية واندفاع سريع تجاه الاممية . ولكن الاممية لم تحرز نصرها النهائي والحاسم ضد القومية وكان هناك لسنوات عديدة توازن غير ثابت بين التيارين . فقد احدث تأرجح كفة الميزان ، تارة هنا وتارة هناك ، كل التمرجات والتقلبات التي شهدتها الاتحاد السوفياتي . وتميزت الفترة التي حكم فيها خروتشيف بعد موت ستالين بالغموض في معالجة المشكلة اليهودية . وولت لا سامية السنوات الاخيرة من حكم ستالين ورفعت شعارات مساواة اليهود بالمواطنين الآخرين . ولكن لا يزال هناك ، وطبقاً لجميع الحسابات ، تيار

قوي ، معاد للسامية . فالمعالجة الحقيقية والصريحة للمشكلة اليهودية لم تبد
للعيان بعد . ولا نستطيع ان نأمل بذلك إلى أن تعرض جميع المشاكل الروسية
في الماضي والحاضر ، الفنيصة والمفجعة ، المدهشة والمثيرة ، في امتحان حر
وصريح يجريه الحكام السوفييات والمواطنون السوفييات والشيوعيون
بصورة عامة .

مَنَاحِ اسْرَائِيلِ الرُّوحِي

من هو الاسرائيلي ومن هو اليهودي ؟ كثيراً ما يناقش هذا السؤال في اسرائيل بسبب الاهمية الواضحة لعلاقة اسرائيل الفتية بيهود العالم . فهناك العديد من الصهيونيين ممن يؤمنون بعودة اليهود من البلاد في المنفى . ويعتبر كل يهودي خارج اسرائيل في نظر هؤلاء ، مبعداً ، وعليه واجبات تجاه اسرائيل ، وواجبه الكلي أن يصبح مواطناً اسرائيلياً . ومن جهة اخرى ، لا يشعر الشباب الاسرائيلي ، وخاصة الصابرا ، « بالانتماء الى اليهودية العالمية » ، وبالتالي فهم لا يرون ان « اليهودية العالمية » ، تنتمي الى اسرائيل . ويفالي بعضهم ليقول انه اسرائيلي وليس يهودياً .

ان الفارق بينها ليس زائفاً تماماً . فهناك مسحة غير يهودية بشأن اسرائيل ، من عمال يكافحون الصحراء ويحولون رقما بساتين عنب وزيتون ، ومن جنود يراقبون العرب باستمرار عبر الحدود ، وفي ذلك التحسس الشعبي لوجود الدولة وللغنف الذي يبديه الشعب للدفاع عن دولته في وجه العالم الخارجي .

ولقد يُوجّه الى الزائر لاسرائيل سؤال كهذا : « الا تشعر اننا نحن اليهود

تملك جذوراً هنا ؟ ان هذه الكلمات « جذور » « بلا جذور » تتردد بكثرة اثناء الحديث . لقد دفعت الاقامة في معسكرات الاعتقال النازية ، والمعاناة من العداء البولندي القديم للسامية والوقوع ضحية للحرس الحديدي الروماني كل هذه دفعت اليهودي كي يشعر بأنه في وطنه وفي مأمن . لذا فهو يعبر عن رضاه وارتياحه وزموه .

ان كل هذا الصراخ المتناغم من التصوف القومي يصر الآذان فهو لا يخلو من عنصرية الشعب المختار القديمة والتي لا تنسجم مع عنصر العقلانية الباردة في الطبع اليهودي . غير ان اسرائيل ، بمسئد كل حساب ، هي بلد زوهار Zohar ، الانجيل الثاني للفيبيات في العالم ، وهي مقر رجال الكابلاه Kabbalists الذين نسجوا رؤاهم على الصخور الزاهية المجاورة لصفد ... ومهما يكن من أمر فهناك شيء مزعج في حدة الشعور القومي الذي ينضح به حديث الاسرائيليين على اختلاف مراكزهم ومسؤولياتهم .

ويحدثني بن غوريون بمرارة عن اليهود غير الصهيونيين فيقول : « انهم بلا جذور ، اميون بلا جذور وطنية - لا يمكن ان يوجد ما هو اسوأ من هذا » ، فقلت له انه يتكلم كرجل سناليني في دعايته عندما يتحدث عن اليهود بصورة عامة . فلوح بيديه محتجاً :

« كلا ، كلا .. انني كرئيس للوزراء في هذا البلد كنت اؤكد دوماً ان على الاسرائيليين ان يشعروا بأنهم مواطنو العالم كي يكونوا ذوي قيمة كاملة لدولتهم . انني لا اردد « بالامية التي لا تمتلك جذوراً وطنية » بالطريقة التي اتبعوها في موسكو » .

ان هذا بالطبع هو فكر ثان لبن غوريون فهو يدين ، بشكل غريزي ، ويشجب كل اولئك اليهود غير الصهاينة الذين لا تشكل فكرة « الانتماء الى اليهودية » فكرة مركزية أو شعوراً متسلطاً لديهم . ولكن عندما يشار الى بعض

التوافق بين كلماته مع الدعاية المتألفين (في فترة مؤامرة الاطباء) فإن وجهه يتورد مرتبكاً ويصحح نفسه .

في اسرائيل ، شكل أقدم شعب في العالم أحدث دولة قومية وهذا الشعب مندفع ، بتعويض ما فاتته من وقت . ان المثال الاعلى لجميع اليهود هنا انما يتجلى في إنماء هيكل قومي وقائي ومثين مما يقتضي ضمناً ، التخلص من حياة المنفى ، الذكريات ، العادات ، الاذواق وزواجر المنفى - أي التحرر من المنفى . ويقتضي ذلك تناسي الاجواء ، المناظر الطبيعية الريفية والالخان ولغات عدد كبير من البلدان مثل بولندا ، روسيا ، لتوانيا ، النمسا ، مراكش تركيا والعراق . يا لها من عملية ممتدة ومتعددة الجوانب تتمثل في اقتلاع نفسي يلي خطوات مأساوية من الاخلاء المادي . في الحقيقة هناك أغلبية ساحقة من الجيل الحاضر في اسرائيل لم تضرب جذوراً لها في اسرائيل ولن تستطيع ذلك . ان اسرائيل هي دولة الشخص المشرود ولهذا يكثر الحديث عندهم حولي « الجذور الضاربة » .

انهم يتوقون للابتعاد عن ماضيهم وإزالة إمارات المهانة ووصحات العار من أذهانهم وكذلك لتناسي جميع المحاولات التي قاموا بها لمهاجرة ضفائن الآخرين الموروثة . بل انهم يتوقون للتخلص حتى من جزء من عقلم الخاص . يشعر بعض الاسرائيليين مثلاً ، بخجل عصابي من اللغة اليديشية ، لغة اشعارهم في الحضارة ولغة قصص التوراة والأدب الغني المدهش الذي نما في شرق اوروبا قبل النكبة اليهودية . واذا كنت على ظهر سفينة أو في قل ايبب وسألت رجلاً عن اللغة التي يستوجب مخاطبته بها ، فستكون الالمانية هي جوابه على الأغلب ونادراً اليديشية . ولكن في اللحظة التي يتفوه فيها الغريب ، يتضح انه يتحدث اليديشية - فهو على الأغلب يجهل اللغة الالمانية الاصلية - ولكنه لا يريد الاعتراف بذلك . فاليديشية « ورقة توت » لغوية وهو مصمم على نبذها .

ان هذا الموقف من اليديشية هو من سمات الصهيونية حتى قبل مجيء هتلر
بزمان وقد هدفت الصهيونية منذ البداية الى احياء اللغة العبرية . ويقوم قدر من
التعالى حولها كما لو جرت محاولة من قبل اليونانيين أو الايطاليين للرجوع الى
اليونانية أو اللاتينية الكلاسيكية والتخلي عن لغاتهم الحديثة . لقد رأت
الصهيونية دوماً ان اليهودية ما هي إلا امر الزمان الذي حكم عليه بالعيش في
فقر مدقع لسنوات عديدة ، ولكن هذا الامسير يعود الآن الى قصره الملكي
ويخلع عنه الاممال البالية الكثيرة التي ارتداها في الحفلة التنكرية ويرتدي
الثياب الملكية المذهبة الارجوانية . وهكذا تتخلي اليهودية على عتبة اسرائيل ،
عن الاممال اليديشية البالية في سبيل ذهب وارجوان العبرية .

يسألني بن غوريون بلهجة توحى بالثقة بنفسه : متى ستبدأ الكتابة باللغة
العبرية بدلاً من الانجليزية ؟ انه يفترض جدلاً بأي أي كاتب يهودي المولد عليه
واجب اخلاقي تجاه أدب اسرائيل العبري .

ان هذا التأكيد الذاتي الاسرائيلي - العبري قد قصد منه صهر كل العناصر
المتباينة في اسرائيل ضمن أمة واحدة واعطاء هذه الأمة وحدة روحية
وثقافية . ومع ذلك فان وراء هذا التأكيد الذاتي حنين اليهود الطبيعي لبلاد
وثقافات شهدوها في طفولتهم وشبابهم ، ذلك الحنين الذي يعبر عن نفسه
احياناً بضروب من النبسالة القصوى . ويكاد المرء ان يعرف قصة الحنين الى
الوطن من خلال واجهات المكتبات الاسرائيلية - فتكاد تكون هذه الواجهات
شبيهة بالنواح الفكرية على النفس اليهودية . وتشكل المكتبات عنصراً شديداً
الاهمية في الحياة الاسرائيلية لأن اليهود مكثوا هنا وعرفوا « بشعب الكتاب »
(Am Hassfer) . ان الكتاب ضرورة أولية هنا ، ويبدو ان عدد المكتبات
ومكتبات الاستعارة في تل ابيب وفي حيفا وفي القدس يفوق عدد الحوانيت
ودكاكين الحضرة . وهناك مكتبات غنية في المستعمرات الزراعية قلما يوجد

لها مثيل في الاريايف الاخرى .

ليست كتب الجريمة أو الجنس أو المسلسلات الهزلية أو الكنب الرائجة الرخيصة الثمن هي التي تملأ الرفوف بل تملؤها الكنب العظيمة والجادة للشعراء والمفكرين واصحاب الرؤى الاجتماعية في جميع الأمم وهي موجودة هنا بترجمات عبرية وبلغاتهما الاصلية . كانت كل مجموعة من المهاجرين ، على ما يبدو ، حريصة على نقل الرعشات الفنية والمثيرات الادبية لأيام طفولتها وشبابها الى الاطفال الذين يكبرون في اسرائيل .

وكتب هنريك هاين مرة يقول انه عندما كان اليهود يرحلون من أراضيهم كانوا يتركون خلفهم كل ثروتهم عدا ملكية واحدة وهي الكتاب (التوراة) . واستمر « ذلك الشبح من الشعب » يتولى طيلة العديد من القرون حماية التوراة محتفظاً بها لسائر البشرية .

ان دولة اسرائيل هي بالاصل من عمل يهود اوروبا الشرقيين وخاصة الروس والبولنديين واللتوانيين . وجاء من بين صفوف هؤلاء معظم اصحاب الرؤى ماعدا هرتزل وفوردو وكذلك جاء من بينهم معظم القادة الاوائل والناطقين الرسميين ورجال الدولة والرواد ، وعندما أعلن عن قيام الدولة اليهودية في عام ١٩٤٨ كان اليهود الذين هم من اصل روسي وبولندي يشكلون حوالي نصف سكانها .

كان التيار القديم للحياة اليهودية يجري على أشده في الاحياء اليهودية من اوروبا الشرقية حيث حلم اليهود بأحلام صهيون بكثافة . وعندما كانوا يجيى بعضهم بعضاً في أعياد الفصح كانت العبارة العامة هي « عامنا القادم في القدس » . تبدو مخالفة للطريقة التي نسمعها بها في المنازل اليهودية في اوروبا الغربية أوفى امريكا . ان العمليات التي اندمج بموجبها اليهود الفرنسيون ،

البريطانيون الطليان والامان بمواطنيهم المسيحيين قبل بزوغ النازيسة لم تحوز نجاحاً في روسيا وبولندا . فقد عاش اليهود بأعداد كبيرة ومكتظة وكانت لهم طريقته الخاصة والمتجانسة في الحياة ، أما القوى الممتصة للحضارات السلافية فقد كانت من الضعف بحيث لم تقو على سحبهم وادماجهم . وترتب على ذلك ان اصبحت اوروبا الشرقية موطن اليهودية المفضل (فلذا لم يكن اعتباراً تسمية فيلنا « بقديس لتوانيا ») . فهل مما يثير الدهشة ان يقال ، على لسان احد اليهود من غرب اوروبا ، ان اسرائيل « مستعمرة روحية للاحياء اليهودية في اوروبا الشرقية ؟

علاوة على ذلك فقد كان الحبي اليهودي في شرق اوروبا منقسماً على نفسه بشدة . وكان في ثورة على نفسه وعلى تقليده وعقيدته الشخصية وعلى العالم الخارجي . وقد اتخذ التمرد شكلين متنافسين هما الصهيونية ، والاشتراكية الماركسية الثورية .

وبينا كانت العلاقة بين الاشتراكية والليبرالية والصهيونية تقوم في الغرب على المحبة ، اتسمت هذه العلاقة بالمنافسة المريرة للوفاء للجماهير لليهودية في شرق اوروبا . وغالباً ما يظهر الشقاق عميق بين اليهودي الصهيوني واليهودي المعادي للصهيونية . ولقد حث المعادون للصهيونية باقي اليهود على أن يثقوا ببيتهم غير اليهودية وان يساعدوا « القوى التقدمية » في تلك البيئة كي تصبح صاحبة السيطرة ، وأملوا من ذلك ان تدافع هذه القوى عن اليهود بفعالية وتناهض اللاسامية . لقد كانت حجة أجيال من اليهود اليساريين أن « الثورة الاجتماعية سوف تمنح الحرية والمساواة لليهود ، فلا حاجة اذن للخلاص الصهيوني المنتظر » . أما الصهيونيون فقد اسهبوا من جهة أخرى بالتحدث عن البغض العميق الذي يمكنه غير اليهود لليهود ، وحثوا اليهود على أن لا يعتمدوا في مستقبلهم على أحد غير دولتهم هم . وقد احرزت الصهيونية في هذا الخلاف نصراً مروعاً لم يكن يخاطر ببأها . كان على ستة ملايين من اليهود ان يلاقوا حتفهم في غرف الغاز التي

أقامها هتلر كمي تظهر اسرائيل على وجه الحياة . ولكن ألم يكن من الأفضل ان لا تولد اسرائيل وان يبقى الملايين الستة من اليهود أحياء - ومع ذلك فمن يستطيع توجيه اللوم لاسرائيل أو الصهيونية على هذه النتيجة ؟

ان الصهيونية في اوروبا الشرقية كانت مطلقة العداء للثورية ، ومع ذلك فقد استنشقت هواء الثورة الروسية ، تلك الحركة الضخمة من الافكار الثورية التي سبقت وقوع الثورة البلشفية وبلغت أوجها في هذه الثورة ، تلك التي تركت بصماتها الابدية على الصهيونية .

ان الشاب اليهودي في كييف ، أو ديسا ووارسو الذي إرتساب من الايديولوجيات الثورية الروسية - البولندية وثاق لزيارة الدولة اليهودية في فلسطين ، كان منوماً (بشكل عام) بهذه الايديولوجيات التي فر منها ، وهذا ما اكتشفه بعد وصوله الى فلسطين .

ويوجد في اسرائيل بعض التفاوت الذي يسترعي الانتباه في الثروة والفقرة . فهناك بون شاسع بين أكواخ العصور التي يقطنها الفقراء وبين الفنادق المترفة والفيلات على جبل الكرمل . ولكن يوجد شعور بالحزبي منتشر وذو خطورة بسبب هذا التفاوت ، وهو مماثل للذي ظهر في روسيا ايام تولستوي وتشيكوف . ويوجد شعور بالمساواة يسود في اوساط الطبقة العاملة شبيه بذلك الذي ازدهر في روسيا السوفياتية قبل اجهاز الستالينية عليه . وتلتزم النقابات ، الى درجة ما ، بتعقيق سياسة المساواة في الأحرور . فالتفاوت في الاجور بين العمال المهرة وغير المهرة وموظفي الدولة ضئيل نسبياً . ويتذمر الناس من ان نقص مدفوعات الحفز يعرقل التقدم الاقتصادي في اسرائيل .

يعتبر الكيبوتز ، وهو وحدة ريفية صغيرة ، نموذجاً للمساواة

(Egalitarianism) الاسرائيلية ، وهو ايضاً من أهم مظاهر الصورة الفكرية والاخلاقية لاسرائيل . والكيبوتز سليل غير مباشر لفكرة الشعبين الروس Narodniks (*) .

و بشر الشعبيون باشتراكيتهم الزراعية في النصف الثاني من القرن الماضي في وقت لم تكن فيه روسيا تمتلك صناعة حديثة : وجاء « أحياء صهيون » وهم رواد الصهيونية الحديثة من روسيا الى فلسطين قبل ان تكون يوتوبيا الشعبين قد اضمحلت كلياً . وجاءت موجة الهجرة الثانية Alliyah بعد هزيمة الثورة الروسية التي حدثت عام ١٩٠٥ - ١٩٠٦ . وأوجد رجال هذه الموجة أعظم وأجل المزارع الجماعية في الخليل وطبريا وتلال القدس على مقربة من المدينة ووصل الفوج التالي من المهاجرين بعد قيام الثورة البلشفية . واقام الاغنياء من اليهود الروس ، الذين عملت الهجرة على انقاذ بعض ثروتهم في برلين أو باريس أو لندن أما الذين جاءوا الى فلسطين فلم يتمكنوا من انقاذ شيء غير حلهم في الدولة اليهودية .

وشجعت حكومة لينين ، في ظل السياسة الاقتصادية الجديدة ، بعض المزارعين المثاليين ومثقفي الحزب على أن يشككوا وحدات ريفية تجريدية مدعومة بمساعدات طوعية ، واعتُبرت تلك الوحدات « مختبرات المستقبل » وهي غير المزارع الجماعية في عهد ستالين . وكانت المزارع الجماعية في اسرائيل

«الناردونيك (او الشعبية) : تيار بورجوازي صفيير فلاح في الحركة الثورية نشأت في الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر . وكان الشعبيون يسعون الى تصفية الاوتوقراطية بتسليم اراضي الملاكين العقاريين الى الفلاحين . واعتبروا أن القوة الثورية الرئيسية هم الفلاحون ورأوا في المشاعسة الريفية جنين الاشتراكية . وقد ذهب الشعبيون الى القرية (الى الشعب) سعيًا منهم لحث الفلاحين على النضال ضد الاوتوقراطية ولكنهم حسب رأي دويتشر لم يلقوا التأييد لدى الفلاحين . (راجع كتاب ثورة اكتوبر في نصف قرن ، ص ٤٦ - تأليف : اسحق دويتشر ، ترجمة بيار عقل) (الترجمة) .

Kibbutzim على غرار الوحدات الريفية الروسية الاولى قد شيدت بواسطة الشبان والفتيات الذين تركوا منازلهم العائلية وانضموا الى المنظمات الاشتراكية الصهيونية مثل هاشومر هاتزير Hashomer Hatzair وذلك لكي يزرعوا الحقول في مدن فلسطين وأراضيها بدلاً من ان يخوضوا صراعاً طبقياً .

وتعتبر الكيبوتز مؤسسة فريدة من نوعها من الناحية الاجتماعية وتعود جذورها الى ما هو أبعد من الشعبية الروسية ويمكن ان توجد في برنامج عمل فورية الفلاتستير Phalansteres وفي تجارب روبرت اوين التعاونية وفي المشاريع المختلفة لاشتراكية العصر الكلاسيكي الخيالية . وكان مؤسسو الكيبوتز يأملون ، مثل الاشتراكيين الطوباويين ، في تحقيق الاشتراكية بالمثال الفردي لا عن طريق انقلاب ثوري منظم على المجتمع القائم . على أن القصور التي شيدها الاشتراكيون الطوباويون في الهواء سرعان ما انهارت بعد تشييدها . فقد بُني الكيبوتز هنا ، بالمعنى الحرفي ، على الرمال ، غير أنه أظهر الكثير من الصلابة . وستحتفل أقدم مزرعة جماعية في اسرائيل قريباً بعيدها الخمسين ويوجد العديد من هذه المزارع التي تم تشييدها قبل عشرين أو ثلاثين سنة وحققت التقدم والازدهار .

والذي لم يشاهد الكيبوتز سيصعب عليه تصور مدى الجرأة في الفكرة وفي تنفيذها . وفي العادة يكون في الكيبوتز عدة مئات من الاعضاء يعيشون في دور صغيرة وهي جميلة البناء والأثاث وتقع البيوت البيضاء في صفوف متقابلة وهي محاطة بفراش من الأزهار وفيها قاعات الطعام والمكتبات والمدارس والمركز الطبي ومبان أخرى للاستخدام العام مع الورشات وسقف المزارع في أطراف المستعمرة . ان توزيع العمل بين اعضاء الكيبوتز هو أمر اختياري ، وينمو هذا شيئاً فشيئاً باتساع مع التقدم في التكنولوجيا الزراعية . وفي بعض المزارع الجماعية توجد مصانع احتياطية ذات حجم كبير ويعمل الاعضاء الذين هم دون سن الخمسين لمدة تسع ساعات يومياً وما فوق ذلك يعملون أربع

ساعات . واذا أظهر العضو ميولاً فنية أو علمية فان مجلس الوحدة الادارية (Commune) يمكن ان يقصر من مدة عمله في المزرعة أو يعطيه سنة للراحة بعد فترة من عمله .

وتتشابه المكافآت نوعياً وتوزع الأغذية والملابس والأثاث والمواد الطبية والدخان والكتب (حق اللوحات الفنية) من الصندوق المشترك - لكل حسب حاجته . ويحصل كل عضو على بضعة جنيهات كمصروف جيب . ويتوقف مستوى الحياة الميشية في الكيبوتز على حجم الصندوق المشترك أي على الثروة المتجمعة عبر السنين وعلى انتاجية العمل الجاري وعلى الربح الذي تجنيه منظمات التسويق التي تبسح فوائض الانتاج للآخرين .

وقد امتدت القاعدة المشاعية بشكل جريء الى تعليم الاطفال الذين نشوا في الكيبوتز ولكنهم يقيمون في حبيهم الخاص ويكثون مع والديهم بضع ساعات فقط في اوقات فراغهم في المساء . ولاحظت ان اعضاء الكيبوتز قد اعتادوا على التربية المشاعية للاطفال الى حد انهم يتحدثون عن جميع أبناء الكيبوتز بطريقة طبيعية وغير منحازة كما لو انهم يتكلمون عن ابنائهم .

وتعتبر الكيبوتز من بعض الوجوه ائتلافاً من المهيم الكشفي والدير البنديكتيني وتمتع بميزة فقدان الانضباط القسري ويسر العلاقات الانسانية وقيمتها الهادفة .

ويعيش في المزارع ما يقارب سبعون الفاً من السكان وهم لا يشكلون اكثر من 5% من سكان اسرائيل ، غير ان نفوذهم يفوق عددهم . وتكن جاذبية الكيبوتز في فكرتها المثالية ويبدى العديد من سكان المدن رغبة في إرسال اطفالهم الى مدارس الكيبوتز التي تستخدم اساليب عصرية جداً في التعليم .

كانت أهمية الكيبوتز في ظل الانتداب البريطاني تفوق ما هي عليه الآن

بكثير . وكان عدد اليهود اقل بكثير في ذلك الحين ولم تكن هنالك اجهزة حكومية من جيش او بوليس أو نظام قضائي يهودي . وكان الكيبوتز بتنظيماته القوية ومعنوياته العالية يشكل نوعاً من دولة الظل اليهودية . ويوجد العديد من كبار الموظفين الحاضرين ومن الضباط ممن جاءوا من الكيبوتز وبقوا اعضاء في مجتمعهم الريفي . ويحاول البعض ان يجمع بين العمل في الدولة والعمل في الكيبوتز وهذا ممكن لصغر حجم الدولة وللصفة القبلية - الى حد ما - التي يتسم بها المجتمع الاسرائيلي .

ولا يزال الكيبوتز حتى الآن مركزاً للقوة الخلفية في اسرائيل ولكن منذ وقت غير قصير بدأت مراكز الكيبوتز تواجه الازمات ، فقد طغت مؤسسات الدولة عليها واغرقتها تدفقات المهاجرين الجدد .

ومنذ عام ١٩٤٨ ازداد عدد سكان اسرائيل بنسبة تفوق الضعف ولم يكن الوافدين الجدد بمثابة الذين سبقوهم في الهجرة ، فهم من مخلفات معسكرات الاعتقال النازية ومن يهود اوروبا المنبوذين والمشردين ومنهم من كان من اليهود الشرقيين . وتبدو مفاهيم رواد الصهيونية الأولى غريبة ومبهمة بالنسبة للعديد من المهاجرين الجدد . وهم يفضلون دكان خردة او تبسغ في مكان ما من المدينة على كل معجزات الكيبوتز والمستوى المعاشي المرتفع - نسبياً - للمزارع الجماعية . وما يزال عشرات الآلاف من هؤلاء المهاجرين يعيشون على الاعانات في الاحياء الفقيرة وفي مخيمات العبور وهم يؤثرون باستمرار في معيشتهم على الاعانات في اكوامهم القديمة عوضاً عن دفع ايجار المنزل الجديد وقد عادت قلة منهم الى الهجرة من جديد الى تونس ومراكش فاقتصاد البلاد لا يستطيع استيعابهم الا بالتدريب وبمشقة وعبثاً يدعوهم الكيبوتز للاتحاق في صفوفه كاعضاء متساوين .

« اننا سكان مدن ، ولن نصبح اشخاصاً ريفيين » هكذا يجيب الخياطون السابقون والباعة المتجولون الذين وفدوا من بونارسست وفيينا .

ويقول البعض « اننا نرغب في اكتساب نفود لنا كي نضع بعض المدخرات

جانبا . اننا نؤمن بالملكية - وملكييتكم الجماعية لن تكون لنا .
ويقول آخرون « لا نريد أن نتناول طعاما في قاعات عامة طول حياتنا وان
يكون ابناؤنا منفصلين عنا » .

« وظفونا كشغيلة عندكم ، وادفعوا لنا نقداً ولا تطلبوا منا ان نصبح اعضاء
في مجتمعتكم » .

ان هذا اسوأ من اهانة لايمان الكيبوتز - كما أنه يخلق مأزقاً جديداً أو
يسلط عليه الأضواء على الأقل . ويجد الكيبوتز نفسه مواجهاً بطلب بان يصبح
« موظف رأسمالي » . والغريب ان يأتي هذا الطلب من الراغبين في ان يكونوا
شغيلة أو موظفين . أن استئجار العمل بالنسبة للكيبوتز يعني التخلي عن أول
مبادئه . ومهما يكن من أمر فهذا هو شعور جماهير المزارع الجماعية ممن يلتزمون
بالاشتراكية المعتدلة لحزب الماباي . ومن جهة أخرى ، تتوق الحكومة التي
يتزعمها حزب الماباي إلى توطين المهاجرين الجدد وهي تحت الكيبوتز على التخلي
عن « الايدولوجية الخالصة » واستئجار العمل من غيحات مرحلة الانتقال وتوجد
بعض الاصوات من داخل الكيبوتز ممن تنادي بالمثل . إن اقتصاد الوحدات
الزراعية قد اتسع بقوة في السنوات الاخيرة ولكن عدد الأعضاء ظل ثابتاً نسبياً .
ولكي يبقى التوسع قائماً كان لا بد من استئجار العمل من الخارج لمنع حدوث
حالة ركود . ان موضوع الساعة الاهم ، وهو موضوع يطرح من زاوية خلقية ،
هو « ان نستأجر أو لا نستأجر » . ولقد اصبحت حصون الملكية العامة ببعض
الشغرات ، فيشاهد المرء مجموعات من العمال المستأجرين في العديد من المزارع
الجماعية ويعمل المنظرون بمشقة لاستنباط صيغ جديدة مصممة لتمديد كمية
العمل المستأجر ويأخذ الجميع على انفسهم من « دان الى بئر السبع » عهداً
مقدساً بأن لا تصبح اعمالهم ذات طبيعة رأسمالية ، مهما بلسغ علو طوفان
الرأسمالية خارج حدودهم .

ولهذا ، يمكن لقصة الفلانستير (الكتائية) ان تكرر نفسها في اسرائيل . وقد كان مصير كل تجارب الاعمال التي قامت بها الاشتراكية الطوباوية اما الانهيار او التحول الى مشاريع رأسمالية فعالة . ويمكن ان يكون هذا الأمر هو ما سيصيب الكمبيوتر ايضاً ما لم يحدث نوع من التغيير الاجتماعي في الشرق الاوسط يقوم بدوره في تغيير البيئة الاوسع للكمبيوتر .

ويناضل الكمبيوتر حالياً كي يحتفظ بمركزه ومما يساعده في فضاله انه يخدم مصلحة قومية هامة فهو لا يزال المتراس الرئيسي لحماية اسرائيل . لقد تحمل الوطأة العظمى لحرب الاستقلال ومارس في الطليعة وفي المؤخرة كل كل المعارك . ان البنيان التنظيمي للكمبيوتر يجعل منه مستعمرة عسكرية مثالية وهي تشكل احتياطاً للجيش .

إن تطلعات إسرائيل الثقافية تأثرت بشدة من جراء التغيرات في تكوين الشعب فقد شكل اليهود الذين هم من الاصل الاوروبي الغالبية العظمى من السكان في ظل الانتداب البريطاني اما الآن فهم ليسوا سوى اقلية . ويشكل المهاجرون من آسيا وافريقيا نحو نصف عدد سكان اسرائيل .

اما اليهود الذين جاءوا من شمال افريقيا الافرنسية فهم يمزجون بين تطلعاتهم العربية والفرنسية بالتساوي ، وهؤلاء صاخبون ومتمردون يجلسون مع عائلاتهم امام اكواخهم ودكاكينهم التي استولوا عليها من العرب . فيتحدث الآباء عن اعمالهم ويتجادلون حول مزايا ومساويء رحلة اياييسة للمغرب او تونس بينما نجد الاولاد يقرأون ويناقشون آخر مواضيع مجلة « ابناء ادبية » Nouvelles Littéraires الباريسية . وهنالك ايضاً يهود ايران الذين يرتدون قبعات سوداء مصنوعة من جلد الحمل ، ويهود العراق وتركيا ويهود بخارى يلبسهم اليهودي الابيض المتهدل ويلبغاهم الناعمة . واخيراً هناك يهود اليمن بأعينهم الوضاعة السوداء وبشعرهم الأسود الطويل اما بناتهم فيعلن اسواق

العمل بحثاً عن عمل للخدمة في البيوت .

وتروي احدي القصص كيف كان شعور اليهود اليمينيين عندما نقلت الخطوط الجوية البريطانية ٥٠٠٠ منهم الى اسرائيل . فقد سروا بركوب الصائرات التي لم يروها من قبل واعتقدوا بأنها كانت « اجنحة النسر الابيض » التي اخبرتهم النبوءة القديمة بأنه كان مقدرآ لهم ان يعودوا عليها الى الأرض المقدسة يوم يأتي النبي المنتظر . ولكنهم اصابوا بالرعب عندما قيل لهم بأن يركبوا الباصات التي كانت ستأخذهم من المطار الاسرائيلي الى مخيمات العبور . فلم يذكر في النبوءة شيئاً عن وسائل نقل مثل الباصات .

ان يهود اسرائيل ليسوا من التدفقات الاوروبية فحسب بل يوجد من هم من الصحراء العربية الجنوبية ايضاً . ولكن كيف سيؤثر هذا اللقاء الشرقي الغربي في التطلعات الثقافية في اسرائيل ؟ يسمع المرء شتى انواع النظريات والتكهنات العميقة في القدس وتل اييب ويشير البعض الى نسبة المواليد العالية بين اليهود الشرقيين ويتنبأون بان اسرائيل ستصبح شرقية في النهاية ويتنبأ آخرون بتبلور حضارة اسرائيلية جديدة . واعتقد شخصياً ان اليهود الاوروبيين سوف يصهرون في النهاية ، اليهود الشرقيين فهم يمثلون الحضارة الأرقى التي « تنتصر » في العادة على الحضارة الأدنى ، وهم يغزونها الآن من خلال المدارس والجيش وكلاهما ذو اهمية حاسمة من أجل توحيد اللغة والثقافة والمعاداة في اسرائيل .

وفي نفس الوقت ، يوجد نوع من العداوة الملحوظة بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين . فقد تبوأ اليهود الغربيون جميع مراكز النفوذ في الخدمة المدنية ، الجيش ، التعليم ، الصناعة والتجارة والمالية . ويشعر اليهودي الشرقي بأنه مواطن من الدرجة الثانية وانه ضحية للتمييز والمعجرفة اليهودية (ويتذمر احياناً من حاجز اللون)*

* في محاضرة قيسة للامتاذ صبري جريس مؤلف كتاب (العرب في اسرائيل) ذكر بأن اليهود الشرقيين هم من مواطني الدرجة الثالثة في اسرائيل ، إذ يسبقهم اليهود الغربيون والعرب . (المترجم) .

ان تطلعات اليهود من غيرهم التي طالما سمعناها من قبل ، تتردد هنا بين اليهود انفسهم . فيجد بعض اليهود الشرقيين ان حالتهم الاجتماعية قد انحطت بالمقارنة بما كانت عليه في بلادهم القديمة ، فالتاجر اليهودي الذي جاء من شمال افريقيا الفرنسية وجد نفسه في منتصف الطريق بين المستعمر والعربي المتخلف ، لقد كان في مكان ما في وسط السلم الاجتماعي . أما في اسرائيل فقد هبط إلى اسفل السلم الاجتماعي وأصبح اليهودي القادم من شمال افريقيا ، في مواجهة اليهودي الاوروبي ، في نفس موضع العربي في شمال افريقيا في مواجهة الافرنسي .

ان اليهودي العربي مدرك لغيرة وحقد اليهود الشرقيين وهو في بعض الاحيان يبدي تخوفه منهم ، ويمكن لك ايضاً ان تسمع الشكوك التي تثار حول اخلاصهم :

« الله وحده يعلم ما اذا كانوا سيضعون ايديهم في أيدي العرب في حالة قيام اضطرابات . ليس من فارق كبير بينهم وبين العرب . أليس كذلك ؟ »

قد لا تكون هذه النظرة مطروحة جديداً في الوقت الحاضر ، غير انها تشير الى وجود نوع من التوتر . ويظن البعض انه سيأتي يوم يثار فيه حقد اليهود الشرقيين ويستغل على ايدي التحزيبين مثلاً ، وهم حزب فاشي ليست له قوة تذكر في الوقت الحاضر . وفي ذات الوقت يقوم الجميع من احزاب وقادة بتحركات تهدف الى تحسس وعي اليهود الشرقيين الذين يشكلون نصف الامة والتأثير في معنوياتهم . وعندما يرى كبار الرسميين بانه لا بد من تبني سياسة صارمة تجاه العرب بسبب ان الشعوب الشرقية تعتبر أي سياسة اخرى دلالة ضعف ، فهم لا يقصدون العرب فحسب وانما اليهود الشرقيين ايضاً . ان اعمال الانتقام ضد العرب بما فيها مذبحه « قبية » ، قد قصد منها رفع معنويات اليهود الشرقيين وفي نفس الوقت اثارة الذعر بين العرب .

ويتزمت معظم اليهود الشرقيين بالامور الدينية ويحذون ، احياناً ، حذو الحاخاميين المتعصبين الذين جاءوا من شرق اوروبا . ولقد كان التزمت هو

العنصر المحرك ضد تقديم النساء للخدمة العسكرية . وعلاوة على ذلك فان تزمت اليهود الافريقيين والاسيويين قد ألهم بالنزوع إلى المحافظة الاجتماعية أكثر من التعصب الديني الأعمى . وهو على أية حال ، الطف وأكثر تسامحاً من تزمت اليهود الاوربيين . ان الحاخامين من بولنديين وروس ولتوانيين وانصارهم هم من بين أكثر المتعصبين تطرفاً في الدين في العالم . وتتركز بيوتهم في حي ميشيريم بالقدس والذي يشكل احتياطاً حقيقياً ليهودية العصور الوسطى .

ورغم ان اسم ميشيريم (البوابات المئة) يوحي برومانسية الأثار الشرقية ، فان « البوابات المئة » يعود تاريخها الى القرن الماضي فقط . وقد نزل اليهود المسنون والورعون في هذا الحي عندما جاءوا إلى فلسطين كي يدفنوا في الارض المقدسة . وتضج الصفوف المزدهجة من المنازل المتراسة والقذرة اثناء النهار بترانيم الصلاة وقلادة التلمود ويوجد من المعابد اليهودية والمدارس التلمودية ومكتبات المواد والدراسات الدينية في ميشيريم ما يكاد يكون بعدد دور السكن . وتجد المقيمين بلعاهم الطويلة وعيونهم الداكنة ووجوههم الشاحبة يرتدون اثواباً سوداء طويلة حتى في أشد ايام الصيف قيظاً وهكذا يفعل الاولاد الصغار الذين يستمتعون بدراسة تفاسير التلمود على مقربة من جبل صهيون . ولا تزال القوانين العامة المرعية والتي تشكل أساس التلمود في قوتها الكاملة وهي القوانين التي تعتبر تعبيراً مثل « انظر ، يا لجمال هذه الشجرة » خطيئة مميتة اذا قالها اليهودي ، بسبب ان الاعجاب لا يكون الا بالله وحده . ولهذا يحول رجال واولاد ميشيريم نظرهم الى انفسهم او الى الاسفل ويتجنبون بذلك ارسال نظرة آثمة الى شجرة أو الى امرأة عابرة سبيل . هنا يمكن ان يحرم الهرطوقي في المعبد على صوت نفخة بوق وعلى اضواء الشموع . فان يمكن للقانون الديني اليهودي أن يطبق بكل صرامة وقسوة ان لم يكن هنا في هذا المكان .

ويحتل المتعصبون في حي ميشيريم كل يوم جمعة وقبل حلول الفسق الطريق

العام الذي يؤدي الى احيائهم . وهم يستقبلون يوم السبت بالرقص الصاخب ويوقفون حركة المرور في الشوارع حتى ليلة اليوم التالي فويل للمغامر الذي يعبر شوارع ميشيريم الملتوية وفي فمه غليون او ممسك بذراع فتاة . فسيرجم بوابل من الحجارة لان ميشيريم يؤمن ، حسب التوراة ، برمي الآثم بالحجارة . وكذلك اذا غامر طيب بدخول الشوارع اياها بسيارته أو بسيارة اسعاف . فسينزل عليه وابل من الحجارة ايضاً .

ان اهمية ميشيريم نابعة ليس من طابعه المحلي الغريب فحسب وانما من نفوذه على الجسو الحضاري الاسرائيلي ايضاً . وهذا النفوذ يجب ان لا يستخف به فالكيوتز وميشيريم قطبان متضادان في الحياة الروحية من اسرائيل ، ان « المفكرين الاحرار » و « المناضلين التقدميين » سيصبحون في موضع الخنوع اذا ما تركوا وحدهم مع اليهودية المتزمتة . وهكذا فان القانون التلمودي ما زال يحكم جميع العلاقات المتعلقة بالزواج والاسرة وهي بعض الحقول التي يسيطر عليها هذا القانون في الحياة اليهودية . ولوقت قريب ، كان احد الحاخاميين المتزمتين ، وهو لا يملك الا النزر اليسير من الثقافة العلمانية ، عيماً بكلية الحقوق في جامعة القدس ، وفي كل خطوة يخطوها المرء فإنه يأتي عبر بعض الشواهد التي تدعم التهمة الموجهة سلفاً ، من ان هناك اكثر من مسحة ثيوقراطية بالية حول اسرائيل .

وقد ناقشت هذا الامر مسع محرر مجلة يسارية رفيعة وهو كاتب موهوب ومترجم شكبير الى العبرية ، واحتج ببعض الانفعال على اشارة تتعلق بوقوع اسرائيل تحت السيطرة الروحية لميشيريم . ولكنه اعترف عندما تعرض للاستجواب ، بان الاسرائيليين دفعوا جزية هامة للتمت الديني . وهنالك مثل مضحك - مبك على ذلك : فهم لا يربون الخنازير ، على الرغم من ان تربية الخنازير يمكنها ان تسارع في تخفيف مشكلة اسرائيل الغذائية وتخفف من عبء ميزان المدفوعات . ان الكرن كايمث Keren Kaymeth وهو الصندوق القومي

اليهودي يمتلك معظم الاراضي ويقوم بتأجيرها للمزارع مشروطاً عليه ان لا يقوم بتربية الخنازير . لذلك فحق اولئك الملهدون الذين يسكنون الكيبوتز قد خضعوا لارادة الخاخامين. لقد حاول المهرر في البدء ان يجد كل انواع الاعذار « التقدمية » غير انه احر وجهه بعد ذلك خجلاً وفقد اعصابه وهو يقول : « هل انت حقاً تقترح علينا أن نسمح بتربية الخنازير في هذه الارض المقدسة من اجل تخفيف الاعباء الاقتصادية ؟ كلا ، كلا ، كلا . »

ان الاسرائيليين الذي عرفوني كشخص معاد للصهيونية منذ وقت طويل ينتابهم الفضول لمعرفة ماذا افكر في الصهيونية . فأنا تخليت ، بالطبع ، عن معاداتي للصهيونية منذ زمن طويل ، تلك المعادة التي ارتكزت على اقتناعي بحركة العمل الاوروبية ، وبصورة اشمل ، بالمجتمع الاوروبي وحضارته اللذين لم يبررا الصهيونية .

لقد اصبحت الدولة اليهودية ضرورة تاريخية بالنسبة لبقايا اليهودية الاوروبية - ولكن هل يقتصر الأمر على هؤلاء ؟ وهذه ايضاً حقيقة حية . ومهما كانت انشغافاتهم وشكواهم وخيباتهم فان يهود اسرائيل مفعمون بحاسة مواطنية قوية ومتجددة وبعناد هائل على تعزيز وتقوية دولتهم بكل الوسائل التي تقع تحت تصرفهم . ولديهم شعور بان « العالم المتمدن » والذي يمتلك في ضميره مصير اليهودية الاوروبية ، بطريقة أو بأخرى ، لا يستند الى أساس اخلاقي عندما يحاول ان يربح او يندس اسرائيل لاي خرق حقيقي او وهمي للالتزامات الدولية .

ومع ذلك فاني لست صهيونياً حتى الآن وسبق لي ان قلت هذا مراراً امام الجميع . ويتقبل الاسرائيليون الأمر بتسامح غير متوقع ولكنهم يسألون بدهشة : « كيف يمكن لأحد ان يعتقد الصهيونية اذا كان يعترف بأن دولة اسرائيل ضرورة تاريخية ؟ » .

يا له من سؤال صعب ومؤلم ان تجيب عليه .

لا غضاضة في ان يقفز الناس عندما تحترق سفينتهم او توشك على الغرق -
سواء على قارب انقاذ أو عوامسة . القفز بالنسبة اليهم « ضرورة تاريخية » ،
وعرضي القارب الذي هو أساس وجودهم كله . ولكن هل يعني هذا ان يترجم
القفز الى برنامج أو ان على المرء ان يتخسذ من دولة القارب قاعدة للتوجيه
السياسي ؟

في رأيي ان المأساة اليهودية الاخرى هي ان العالم دفع اليهودي كي يبحث عن
الامان في دولة قومية في منتصف هذا القرن في الوقت الذي تردت فيه الدولة
القومية في طور الانحلال .

وخلال عدة قرون ، كان كل تطور قومي في حياة الامم الغربية مرتبطاً
أشد الارتباط بتكوين ونمو الدولة القومية أو بالتحرك من أجل الدولة القومية .
لم يكن اليهودي مرتبطاً بهذه الحركة ولم يُفد ومنها بقي منفلقاً في معبده
وفي ولائه الديني بينما كان الرجل الغربي يخضع ولاءه الديني لولائه القومي فوجد
مكانته الرفيعة في أمته لا في كنيسته . والآن فقط ، عندما لم يعد الفرد ينمو
في مكانته من خلال الأمة وعندما لم يستطع ان يجد نفسه من جديد إلا في
مجتمع فوق - قومي ، وجد اليهودي أمته ودولته . يا لها من مفارقة تاريخية
محزنة !

يتأوه الاسرائيليين قائلين : « أرنا الأمة التي تخلفت عن دولتها من أجل
حلم عالمي أو اممي » .

بالطبع لم تفعل ذلك أي دولة ، ولم يخطر في ظني ان احث الاسرائيليين على
فعل ذلك . ان الفكرة هي ان الدولة القومية تتحلل ولا تتكامل سواء ادرك الشعب
هذا أم لم يدركه ورغماً عن كل جهوده في الحفاظ عليها . فمهما تنوعت مظاهر
العملية على النطاق المحلي فهي تبقى عالمية الانتشار . ويكون قسم كبير من قوة الكتلة
السوفياتية في سعيها لتوحيد المنطقة الممتدة من وسط اوروبا الى البحر الصيني

اقتصادياً وكذلك توحيد القوى المنتجة لثمانائة مليون مواطن من سكان المنطقة .
ولقد خفضت الستالينية ، من اجل تحقيق ذلك ، من سيادتها القومية بشكل
صوري مع الحفاظ على مظاهرها الخارجية . ان الدول القومية في الغرب
احتفظت حتى الان ، باكثر من المظاهر الرمزية الكاذبة ، غير ان هذه الدول
ايضاً تركت عصورها الذهبية بعيدة ، وبعيدة جداً إلى الوراء ، وليس تشبها
بالسيادة القومية إلا مصدراً لضعفها . وكأي نظام تجاوز زمانه فان الدولة القومية
يمكنها ان تديم وجودها بتكثيف جميع عمليات التحللا الذاتي . في الرايخ
الثالث وجدت الدولة القومية اوجها وخصيصة في نفس الوقت ولا يمكن
لاسرائيل ، وهي تنضم إلى صفوف الدول القومية ، إلا أن تشارك في
انحطاط هذه الدول .

ان أي شخص تملكه الرغبة في وضع كتاب مدرسي يتهم فيه على الدولة
القومية لا يستطيع ان يأتي بمثال أفضل من دولة اسرائيل بجميع اوقتها
المتنافرة ونتواتها ومضائقها التي نقشها النقاشون المهرة في الامم المتحدة .

وفي العادة تركز لا عقلانية الدولة القومية في حدودها واسوارها الجركية
حيث تنفصل امة عن امة . لقد اقام الملايين بيوتهم ووجودهم الطبيعي في
داخل الحدود وعلى المئات والآلاف من الاميال المربعة ، وبالقرب من هذه
المساحات ، فقط ، وفي الحدود المجاورة يقوم الجنون المطلق للدولة القومية محققاً
في الوجه . وفي اسرائيل ، يصعب تجنب التحديق الجنوني : فحيث تذهب فانك
دائماً على حدود أو اخرى :

« انظر ، فوق هناك على التل يوجد السوريون ا » .

« عبر هذا الوادي يتسلسل عرب الاردن ليلة بعد اخرى ا » .

« فوق هناك تقوم الحفارة المصرية ا » .

« احذر هذا المر هنا — انه يقودك رأساً الى لبنان على بعد ثلاثين ياردة

من هنا ا »

« لقد شيدنا محطة توليد القوة هذه تحت الأرض - وإلا فانها سوف تدمر في أول يوم من نشوب اعمال العنف » .

« من هنا تمر خطوطنا الحديدية عبر ثلاث مناطق اجنبية » .

« اننا لا نعتبر هذا الطريق بعد الفسق ا فهو ملتصق بالحدود » .

وفي القدس اخذني موسى شاريت ، رئيس وزراء اسرائيل ووزير خارجيتها إلى نافذة مكتبه واراني تل من الرمال التي شكلتها الرياح في الخارج يقسمها شريط من الاسلاك الشائكة . ان الحدود الاردنية - الاسرائيلية أو الخطوط المميزة للحدود تقع على مرمى حجر من هنا . وما على وزير الخارجية إلا أن يرفع رأسه من مكتبه كي يواجه « عدوه » واذا كانت الاجيال القادمة تقترح اقامة متحف لعبيث الدولة القومية فينبغي عليها ان تعرض صورة لهذا المنظر من مكتب رئيس الوزراء . وينبغي عليها أيضاً ان تعرض الاسلاك الشائكة التي تقطع الان اراضي المستشفى الفرنسي في القدس وصناديق الحفارة على الحائط القديم المقابل لجبل صهيون وصور الاطفال الذين سقطوا قتلى بينما كانوا يلعبون في بيوتهم بين اشراك الاسلاك الشائكة . ان جنون الدولة القومية قد وصل إلى القدس وقسم مهد الديانات العالمية إلى قسمين .

ان الاقتصاد الاسرائيلي يعتبر مفلساً باي معيار قياسي . فالصادرات الاسرائيلية لا تغطي إلا جزءاً بسيطاً من تكاليف الواردات ويفتقر معظم المعجز بواسطة الأموال المتأتية من اليهودية العالمية ومساعدة حكومة الولايات المتحدة . وتشترى اسرائيل الغذاء الباهظ الثمن والمواد الخام بالجنهات والدولارات وهي تبذل جهداً كبيراً كي تجد اسواقاً تشجيعية لمنتجاتها . وفي الماضي كانت طرق فلسطين المؤدية الى جاراتها العربية تزدهم بعربات تحمل الغذاء الى فلسطين وتحمل البضائع الصناعية الى جاراتها . اما الآن فالتجارة في حالة توقف تام بسبب

رفض الحكومات العربية الاعتراف بالوجود السياسي لاسرائيل واستمرارها في مقاطعتها .

ان العوامل الانفجارية - شكاوى مئات الآلاف من العرب اللاجئين هي في أساس وصلب الدولة الاسرائيلية ، ويشعر اليهسود ان الضرر الذي الحقوه بالعرب يعتبر ضرراً طفيفاً ، إذا ما قورن بمأساتهم الشخصية . وهذا أمر حقيقي ولكنه لا يستطيع ان يمنع العرب من التألم والتوق الى الانتقام . فالاسرائيليون يمتقدون بان فلسطين لم تتوقف عن كونها يهودية . اما العرب فيمتقدون بان اليهود ليسوا إلا غزاة ومتطفلين في الحاضر وفي المستقبل .

وطالما يستمر النظر الى حل المشكلة بمعايير قومية فان كلا الطرفين العرب واليهود محكوم عليها بالتحرك ضمن دائرة وحشية من البفض والانتقام . يغتال العرب الامهات والاطفسال اليهود ويرتكب اليهود مذبحه «القبية» . ويتعحين العرب الفرص لإحداث تغير في شؤون الشرق الاوسط كي تسنح لهم الفرصة لتحطيم اسرائيل اوهم في نفس الوقت يرقبون بتركيز أي هفوة يمكن ان ترتكبها اسرائيل . ويأمل الاسرائيليون ان تبقى الدول العربية متخلفة كسولة فاسدة وبدون اصدقاء الى الابد كما كانت خلال الحرب العربية - اليهودية ، والافان الاسرائيليين لن يستطيعوا ان يحموا اراضيهم في وجه ٤٠ مليون عربي حتى ولو ازداد عددهم ثلاثة اضعاف ما هم عليه الآن . ان كل جانب يرى سلامته وازدهاره في انعدام امن وخراب و كارثة الآخر .

ويبدو انه ليس هناك من مخرج فوري لهذه الازمسة . ولربما يعثر على مخرج ، في الاجل الطويل ، يتجاوز الدولة القومية وقد يكون في اطار اوسع ، اتحاد فدرالي للشرق الاوسط . عندئذ يمكن لاسرائيل ان تلعب دوراً متوازماً بين الدول العربية يمثل نسبة عدد سكانها ودوراً كبيراً يتناسب مع طاقتها الفكرية والروحية . وكما قيل لي فان هذه الفكرة تحرز تقدماً بين السياسيين من الشباب والمفكرين في كلا الجانبين . ولكنها لن تحرز تقدماً على الارجح ،

في المستقبل القريب. فما زال اليهود منتشرين بشكل عميق بكسبهم للدولة القومية
واما العرب فقد اصبحت الظلم الذي لحق بهم هاجساً يجد من نظرهم بعيداً الى الامام.
ان اي تنظيم فوق - قومي مثل اتحاد فدراي للشرق الاوسط سيكون
مفيداً للجانبين . بيد انه في بعض الاحيان لا شيء سوى موسيقى المستقبل،
تستحق الاستماع .

اسرائيل في الذكرى العاشرة لتأسيسها

ليس من المدهش ، ان نجد الاسرائيليين ينظرون إلى تجربتهم الخاصة بشيء من الافراط . وعلى سبيل المثال يتساءل ابا ايان احد ساستهم المفوهين: ما هي اسرائيل الحديثة ان لم تكن وحدة هذا الشعب ، الأرض ، واللغة في تحقيق سام لدورة التاريخ ، وغير جسر ملقى عبر خليج القارات والاجيال ليرمز إلى وحدة كل التجربة التاريخية ؟ لا بد أن يشعر المرء بان هذا التفسير الرومانطيسي لاصول ومعاني اسرائيل غير مرض . انه يطوق الحقائق التي كنا جميعاً شواهد عليها بفشاوة ذهبية من الخيال ويرمي بحجاب من الوهم على وقائع الماضي القريب ، ولربما يحضر بصورة خطيرة امكانيات غير حقيقية ويضعها امام اسرائيل .

فنحن لم نعد نحيا بعد الان في عصر البطولات الاسطورية - فمثل هذه الخرافات التي تخلى عنها عصرنا كانت بمجموعها رثة وقصيرة في عمرها . لم تأت دولة اسرائيل الفريدة في عالمنا المعاصر ، الى الوجود كي تكون « تحقيقاً سامياً لدورة التاريخ ولكي ترمز إلى وحدة التجربة التاريخية » ولم يكن خلاص اليهود المنتظر بالارض الموعودة هو ما أعطى الميلاد لها . فل هي الحقائق اذن ؟

رفضت الاغلبية الساحقة من اليهود ، قبل مجيء النازية ، وحتى بعد مجيئها ، ان تستجيب لنداء الصهيونية . وحتى في اوروبا الشرقية ، حيث شكل اليهود

مجتمعات كبيرة مكتظة وتحدثوا بلغتهم الخاصة وطوروا ادبهم وثقافتهم وحيث عانوا من التمييز العنصري . ذلك أنهم ظلوا يعتبرون انفسهم مواطنين في البلدان التي عاشوا فيها وربطوا مستقبلهم بمستقبل تلك البلدان وليس بمستقبل الوطن اليهودي في فلسطين . ان نصف اليهود في شرق اوروبا وخاصة حركة العمال اليهودية القوية والنشطة كانت تنظر الى فكرة مثل هذا الوطن بخصومة واعية وقوية . ولم تكن الطبقة الوسطى اليهودية راغبة في التخلي عن اوضاعها القائمة وفي استئصال ذاتها في سبيل الحلم الصهيوني . وعلى الرغم من ذلك ، شكل يهود اوروبا الشرقية المنبع الرئيسي الذي نهلت منه الصهيونية تأييدها فقد جاء منها معظم القادة والرواد والمهندسين الاسرائيليين . أما في الاماكن الاخرى فقد اتسمت الاستجابة للصهيونية بضعف بالغ نسبياً .

ولربما يقول الصهيونيون - ومن يستطيع ان ينكر قولهم - ان اليهودية الاوروبية كانت ستنجو لو انها اتبعت نداء الصهيونية . إن حقيقة عداوة اليهود او فتورهم تجاه فكرة الوطن القومي اليهودي قسدا اثبتت من ثقتهم العميقة بالتقاليد والامكانيات الانسانية للحضارة الاوروبية . أما الصهيونية فلم تر ان مستقبل اليهود يكمن في اوروبا - فالصهيونية تمثل النموذج السياسي للريبة اليهودية من العالم غير اليهودي .

وجاءت الاحداث لتبرهن ان هذه الريبة كان لها ما يبررها بما الحق الخزي باوروبا إلى الابد . ولقد أصبح هذا واضحاً بصورة مرعبة بعد ان لاقى ٦ ملايين من اصل ١٥ مليون يهودي حتفهم في غرف الغاز وبعد ان واجه الاسرائيليون مطاردة البريطانيين في شواطئ فلسطين للسفن المحملة بحطام اليهودية الاوروبية . بعد كل هذا فقط اصبحت دولة اسرائيل حقيقة لا تنكر . لقد جاءت الى الوجود لا كتحقيق سام لدورة التاريخ وانما كفعل لليأس اليهودي وكشاهد لأشرس طور في التاريخ الاوروبي ، طور الجنون والانحطاط .

ان اسرائيل ، إذا ما تحدثنا بلغة السياسة العملية ، مدينة بوجودها وبقائها المصادفات
مثيرة للدهشة في ظروف يصعب ملاحظتها عند النظر للاحداث من علياء الرومانسية
القومية . كان هناك عوامل معينة تجري في صالح اسرائيل . فقد كان العرب
متخلفين كلياً ومنتقسمين بعضهم على بعض وبدون اصدقاء . وكانت بريطانيا
تراجع عن الشرق الاوسط بسبب تفسخ امبراطوريتها اما الولايات المتحدة
والاتحاد السوفياتي وهما الخصمان الرئيسيان في الحقبة الجديدة ، فقد اتخذوا موقفاً
موقفاً معادياً لبريطانيا ومارستا ضغطاً عليها كي تزداد تراجعاً . وكان اليهود
يتمتعون بمزايا التنظيم والتدريب الاوروبي المتفوق ويستمدون مصادر قوتهم
في حرب الاستقلال التي قاتلوا بها من الولايات المتحدة واوروبا الشرقية .
وكان من الممكن ان تكون حصيلة الصراع مختلفة لو ان العرب كانوا أقل
انقساماً وفضل تسليحاً وتدريباً او لو أن بريطانيا لم تراجع او لو ساند الاتحاد
السوفياتي او الولايات المتحدة الشعوب العربية .

ان هذا التفاعل بين العوامل والذي جرى في صالح اسرائيل كان موقفاً
بطبيعته . وبدا ان القادة الاسرائيليين يفعلون هذا الأمر . لقد كانوا ينظرون
عن وعي او دون وعي ، الى ظروف عام ١٩٤٨ على انها ظروف المستقبل وبنوا
سياستهم على هذا الاساس . وعلى الرغم من تخوف الاسرائيليين الجزئي من
من مساندة الحكام السوفيات للعرب مؤخراً غير انه يبدو ان قاداتهم كانوا واثقين
من انهم سيجدون وبطريقة ما ، اصدقاء اقوى في العالم . وهم يفترضون ان جيرانهم
العرب سيقفون الى الأبد او الى وقت طويل بنفس التخلف والانقسام اللذين
كانوا عليها قبل عشر سنوات . ان الاسرائيليين ، باستخفافهم بامكانيات
جيرانهم وقدرتهم على التقدم ، انما يتصرفون كالمصابين بالغرور والازدراء اللذين
يكنها الاوروبيون القدماء للاسيويين والافريقيين وهو ازدراء يحاول الاوروبيون
ببطء ان يشفوا انفسهم منه (لكنهم يفعلون ذلك من خلال تجربة مرة
وقاسية) . ويظهر بن غوريون احياناً كأنه آخر رسوبات النظرة القائلة بأن على

عائق المجلس الأبيض تقع مهمة تحضير الشعوب الأخرى . ومما لا شك فيه ان مغامرة السويس وضعف المصريين قد عززا الاسرائيليين في هذا الصدد . واذا كان الامر كذلك فان اقتصار سلاح الاسرائيليين في سيناء سيكون في نتائج البعيدة اسوأ من هزيمة بالنسبة لاسرائيل .

هنا نصل إلى النقطة الحاسمة في علاقات اسرائيل بالعالم ومواقفها من الامم الناشئة في آسيا وافريقيا . فعندما يوجه المرء انتقاداته إلى سياسة اسرائيل فانه يلقى جواباً بان انبثاق دولة اسرائيل يجب ان ينظر اليه كجزء من استيقاظ الشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة . ويقول احد الكتاب الصهيونيين التقدميين : « بعد كل حساب ، ينطبق هذا (النقد) على معظم دول آسيا وافريقيا تقريباً . فاسرائيل ليست وحدها فهناك دول الهند ، بورما ، سيلان ، غانا ، نيجيريا ، المغرب ، تونس ، ليبيا والسودان ... والعملية مستمرة . »

مرة أخرى نجد الأسطورة ممتزجة بالحقيقة ، ذلك ان نهوض بورما وغانا والهند من حالة الخضوع للاستعمار الى حالة الاستقلال كان يجري ضمن عملية عضوية اجتماعية وسياسية بطريقة مخالفة لنهوض دولة اسرائيل . والاسوأ من هذا ان اسرائيل وجدت نفسها في صراع معلن أو خفي مع العديد من الدول الناشئة في آسيا وافريقيا . فليس يوسع اسرائيل ان تحصل على كلنا الغاندتسين ، فهي لا تستطيع ان تقدم نفسها كإحدى تلك الدول الناشئة وتدعي لنفسها الحقوق المستحقة لتلك الدول وفي نفس الوقت تتابع مصالحها الخاصة الحقيقية والوهمية في معارضة داغة لهذه الدول أو في تحفظ متعطر .

كانت تلك المعارضة تعود جزئياً الى الظروف التي ولدت فيها دولة اسرائيل ففي بداية ولادتها لم تقو اسرائيل على منع نفسها من انتهاك حقوق العرب . ولكن مصلحة اسرائيل ، وهذا أمر كانت تستطيع بل يتوجب عليها القيام به ، ان تبذل كل ما في وسعها كي تخفف من آلام العرب وتحد من اسباب الخصومة

بين الجانبين . ومع ذلك ، فانها عوضاً عن ذلك عمدت الى القيام بمختلف الاعمال التي تزيد تفاقم الوضع وتضاعف العداوة - واسوأ ما فعلت في هذا الصدد كان احتلالها لسيناء . لقد شكل هذا الأمر عبئاً ثقيلاً وخطيراً على ميزانيسة اسرائيل مما سيفوق مع الوقت كل الايجابيات المتوفرة . ففي المدى الطويل لا تستطيع اسرائيل ان تحيا على حدود افريقيا وآسيا وان تكون في صراع مع بلدان القارتين . لقد غدت ملاذاً للاحياء من اليهود الاوروبيين ففتحائى ان تصبح مصيدة موت لهم ا

وانها لمفارقة تاريخية محزنة ان نرى اليهود قد حازوا على دولة خاصة بهم في منتصف هذا القرن ، في وقت اصبح فيه أفول نجم الدولة القومية يبدو أكثر بداهة من سنة الى أخرى . لم يرتبطوا بالدولة القومية عندما كانت في أوجها عندما كانت تشكل عاملاً للتقدم المادي والاخلاقي للعديد من الشعوب وعندما سجلت تفوقها على اقليمية العصور الوسطى واكتسحت الاقطاعية وساعدت في تحرير الاوروبيين من عبودية الكنيسة . وعندما تجاوزت اليهودية الحديثة في آفاقها العقلية حدود المعبد والسوق المالي فانها اعطت اوربا اعظم المبسطين للنظرة العالمية للانسان من سينوزا الى ماركس .

لقد كان على اليهود بحكم ظروف وجودهم ان يرتفعوا فوق حدود النظرة القومية وان يتغلبوا على ولعهم بالدولة أو الامبراطورية وان ينظروا الى اشكال تتخطى الحدود القومية لوجودهم الاجتماعي . والآن عندما دخلت الدولة القومية طور الانحلال واصبحت تنطوي على مفارقة تاريخية تامة وعندما تمكنت الثورة الدائمة في التكنولوجيا من جعل قضية وجود اشكال تتخطى الحدود القومية ، قضية حياة أو موت للبشرية ، في هذا الوقت ، يقوم اليهود بتسخير اندفاعهم المطلق ومواهبهم العظيمة في دولتهم الخاصة وفي قوميتهم الخاصة .

على أن هذا ليس خطأ اليهود وليس للعالم الحق في توجيه اللوم اليهم .

غير ان التناقض يبقى قائماً ، ويمكن لليهود ايضاً ان يكونوا اكثر إدراكاً للامر عام عليه الآن . حقاً اننا لا نتوقع من اسرائيل ان تعطي العالم مثلاً في التخلي عن الدولة القومية من أجل أشكال أعلى من التنظيم الاجتماعي ، ولكن يمكن لاسرائيليين - على الأقل - ان يتخذوا نظرة أكثر تعقلاً لحالتهم وفرصهم وان يجرسوا أنفسهم من الانجراف بحمى قوميتهم . وعليهم ، ايضاً ، ان يرحبوا بسماع انتقادات الآخرين الموجهة لدولتهم . فاسرائيل شيء مخلوق وليس حرمة مقدسة فهي ليست دولة قومية « مختارة » .

مرة أخرى يمكننا ان نتذكر هنا قوميات الامم الفتية الاخرى كالفنوسود والمصريين وغيرهم . بيد ان فقدان الانسجام ليس ظاهراً في أي من هذه القوميات بقدر ظهوره في الشعب الاسرائيلي وذلك بالنظر الى عمق التقاليد الأمية لديه بالنسبة لما هي عليه عند الشعوب الأخرى . ومع ذلك فان قومية هذه الشعوب معرضة لنفس الانتقادات والاعتراضات .

ان حماس شعب يناضل من أجل ان يحرر نفسه من الحكم الاجنبي يستحق الاحترام والاعجاب . ولكن غالباً ما يحدث بعد التحرير ان تزداد الهامة وعندئذ يساء استعمالها وتسخر لسياسات لا تستحق الاحترام . وبالنسبة لشعب تابع فان الاستقلال في دولة هو ضرورة حيوية ونوع من التقدم ، ولكن في الوقت الذي يصل فيه هذا الشعب الى مرحلة الاستقلال ، لا شيء سيكون أشد تأثيراً في تأخره من تثبيت عقله على تلك المرحلة ورفضه ان يتطلع إلى ما بعدها . ان قومية شعب متحرر تستطيع ان تدعى لنفسها المبررات التي تدعيها قومية شعب مضطهد .

ان هذه ليست قضية قاعدة مجردة فقط . ان مستقبل اسرائيل يمكن ان يتوقف على مدى تخلص بقظة الاسرائيليين من الوهم وقدرتهم على إيجاد لغة مشتركة مع الشعوب المجاورة .

الحرب الاسرائيلية العربية حُزيران ١٩٦٧

ان الحرب و « معجزة » النصر الاسرائيلي لم تحلأ أياً من المشاكل التي كانت قائمة بين اسرائيل ، وبين الدول العربية ، على العكس ، لقد ضاعفت الحرب من من خطورة المشاكل القديمة ، وخلقّت مشاكل اخرى جديدة أكثر خطورة من المشاكل السابقة ، ثم ان هذه الحرب لم توفر لاسرائيل الأمن الذي كانت تنشده ، بل جعلتها عرضة للشعاب اكثر من أي وقت مضى . وانني مقتنع بأن النصر الاسرائيلي سيتحول في المستقبل القريب الى كارثة تصيب دولة اسرائيل نفسها .

لنلق نظرة على الإطار العالمي الذي جرت ضمنه الأحداث . يجب اولاً وضع هذه الحرب داخل نطاق الصراعات الايديولوجية التي تدور على مستوى العالم بأسره ، فمنذ عدة سنوات ، تشن الامبريالية الامريكية بالتعاون مع حلفائها هجوماً سياسياً وايدولوجياً واقتصادياً وعسكرياً واسماً في آسيا وافريقيا ضد خصومها ابتداء بالاتحاد السوفياتي الذي يقاوم متقهقراً هذه الهجمات . وقد اسفرت هذه السياسة الهجومية عن نتائج عديدة : منها قيام حكم عسكري في غانا أطاح بحكومة نكروما ، والموجة الرجعية التي غمرت عدداً من البلدان الافرو - آسيوية ، كانتصار للتيار المعادي للشوعية في اندونيسيا ، الذي هو

بمثابة انتصار هام لقوى الثورة المضادة في آسيا ، وتصاعد الحرب الفيتنامية ،
واخيراً الانقلاب العسكري الذي حدث في اليونان ، وما الحرب الاسرائيلية -
العربية سوى حلقة من حلقات الاحداث المترابطة فيما بينها .

ومع هذه الأحداث ، اخذ ينمو تيار معاكس : تحرك ثوري في الهند ،
وموقف اكثر جذرية في بعض البلدان العربية ، ونضال فعال تقوده جبهة التحرير
الوطني في فيتنام ، وتعاظم حجم المعارضة للتدخل الامريكي ، بمعنى آخر ان
التقدم الذي أحرزته الامبريالية الامريكية رافقه نمو قوى معارضة بقيت بلا
جدوى ، فيما عدا ما يجري في فيتنام .

ويتصف الهجوم الامريكي في الشرق الاوسط بأنه حديث العهد نسبياً قياساً
بمناطق اخرى من العالم ، فأثناء حرب السويس ، تبنت الولايات المتحدة موقفاً
« معادياً للاستعمار » وتصرفت بالاتفاق - على الاقل ظاهرياً - مع الاتحاد
السوفياتي باتجاه المطالبة بانسحاب القوات البريطانية والفرنسية . وكان منطق
السياسة الامريكية حينذاك لم يتغير عن الشكل الذي ظهر فيه في أعقاب الحرب
العالمية الثانية ، أي في الفترة التي ظهرت اثناءها دولة اسرائيل الى الوجود ،
وبقي « البيت الأبيض » يلعب دور البطل « المعادي للاستعمار » ، ما دامت
مصالح الطبقة الامريكية المسيطرة تعمل على طرد القوى الاستعمارية القديمة من
آسيا وافريقيا . وبعد ان اسهم الامريكيون في اسقاط الامبراطوريات القديمة ،
شعروا بالخوف من ان تحمل القوى الثورية ، أو الاتحاد السوفياتي ، أو الاثنان معاً
محل الاستعمار التقليدي الذي انهار نفوذه ، وتناست الولايات المتحدة عداها
للاستعمار ، ودخلت مسرح الاحداث .. وحدث ذلك اثناء الفترة الواقعة بين
حرب السويس ، وبين الحرب الاخيرة . عندما أنزلت امريكا قواتها في لبنان
١٩٥٨ ، كانت غايتها القضاء على الانتفاضات الثورية التي كانت تتوالى على هذه
المنطقة من العالم ، وخاصة العراق . ومنذ ذلك الحين ظلت الولايات المتحدة

تجنب - اعتماداً على موقف الاتحاد السوفياتي « المعتدل » - كل تدخل عسكري مباشر في الشرق ، وتعلن عن موقفها المحايد ، هذا مع العلم بأن وجودها في هذه المنطقة اصبح وجوداً فعلياً .

أما الاسرائيليون فكانوا يتصرفون بروحي من مبرراتهم الذاتية ، وليس فقط لخدمة السياسة الأمريكية . واذا كانت اكثرية الجماهير الاسرائيلية قد اعتقدت بأن العداء العربي يشكل تهديداً لها ، فهذا مما لا شك فيه ، ومن البديهي ان الاسرائيليين قد أصابهم الهلع وهم يسمعون اصواتاً عربية تعلن بأنها ستحو اسرائيل من الخريطة . ولقد شعر هؤلاء بالعزلة امام طوق العداء العربي الذي يحيط بهم ، لا سيما وان مأساة يهود اوروبا ما تزال تقض عليهم مضاجعهم . ولقد كان من السهل تماماً على ارباب الدعاية في اسرائيل - يساعدهم على ذلك التطرف الكلامي الذي عمد اليه بعض العرب - استغلال خوف يهود آسيا من « حل نهائي » آخر ، واستمان هؤلاء بكل اساطير الكتاب المقدس والرموز القومية القديمة لإثارة روح التعصب والكبرياء بين صفوف الاسرائيليين ، وشاهدنا آثار هذه الحملة لدى اولئك الذين غزوا سيناء ، وحائط المبكى ، ونهر الاردن ، وأسوار اريحا . وتكن وراء هذه الغطرسة وهذا التطرف عقدة الذنب التي يشعر بها اليهود تجاه العرب ، وتصورهم بأن العرب لن يغفروا لهم مطلقاً ما أصابهم من كوارث ونكسات . كضياع اراضيهم ، والمصير الدامي لاكثر من مليون لاجيء ، والهزائم العسكرية المذلة التي نزلت بهم . وثبتت الغالبية العظمى من الاسرائيليين تحت تأثير الخوف من الانتقام العربي « وجهة نظر » حكومتهم التي تقول بأن سلامة اسرائيل لا يمكن ان تتوفر إلا بفضل حروب متوالية داغة تؤدي في نهاية المطاف الى القضاء على قوة البلدان العربية قضاء مبرماً .

ولكن مهما كانت المبررات والخاوف ، فان الاسرائيليين لا يتصرفون بصورة مستقلة تماماً . ويمكن للمرء ان يرى تبعيتهم إذا ما استعرض تاريخ دولتهم منذ عشرين عاماً . لقد بذلت حكومات اسرائيل كل ما في وسعها لكي تجعل من

« التوجه الغربي » الشرط الاول والاخير لوجود دولتها ، وهكذا تحولت اسرائيل الى مركز أمامي للغرب في الشرق الاوسط ، وشاركت في الصراع الذي يدور بين الامبريالية ، وبين الشعوب العربية المناضلة في سبيل تقدمها . ولم يجد اقتصاد اسرائيل استقراره إلا بفضل المساعدات المالية التي أتته من الخارج ، وبوجه خاص من الصهيونية الامريكية ، وقد شكلت هذه المساعدات نوعاً من الفائدة الغربية التي أتاحت للحكومة تأمين ميزان المدفوعات دون الحاجة الى ان تعتمد الى ما تفعله بقية الحكومات كالتبادل التجاري مع الدول المجاورة ، وأدت ظاهرة المساعدات هذه الى ارساء أبنية الاقتصاد الاسرائيلي على أساس مغلوطة ، لانها شجعت على نمو قطاع هام غير منتج ، ووفرت مستوى معيشة لا علاقة له بالانتاج الفعلي للبلاد .

وفي الواقع ، فقد عاشت اسرائيل خلال مدة طويلة في مستوى يفوق طاقتها ، وكانت تستورد لفترة غير قصيرة ما يقارب نصف المواد الغذائية التي تحتاج اليها ، من الغرب . وبما ان الحكومة الامريكية تعفي من الرسوم الارباح التي تقدم « هبة لاسرائيل » ، فانها تشرف بالنالي على الاموال التي يتوقف عليها مصير الاقتصاد الاسرائيلي ، وبامكان « البيت الابيض » ساعة يريد ان يوجه ضربة قاصمة لاسرائيل يفرضه الضرائب على الاموال المرسلة اليها (وهذا يحرمه من أصوات الناخبين اليهود) ، ومع أن امرأ من هذا النوع لم يحدث الى الآن ، إلا ان احتمال قيام مثل هذا الخطر هو الذي يؤمن للسياسة الامريكية تأييد اسرائيل الدائم لها .

وقبل بضع سنوات ، عندما قمت بزيارة اسرائيل ، ذكر لي أحد كبار الموظفين عدد المصانع التي لا يحق للاسرائيليين اقامتها ، لان الامريكيين يعارضون ذلك ، وبوجه خاص اقامة مصانع الفولاذ ، ومصانع التجهيزات الزراعية ، وأشار الموظف بالمقابل الى قائمة من المصانع - غير المجدية عملياً -

تنتج بكيات لا تصدق لعباً ولوازم المطابيح المصنوعة من البلاستيك ، الخ ... كذلك لا أمل لأية حكومة اسرائيلية بان 'تحسن' بأن لها الحرية في توثيق علاقاتها مع البلدان العربية ، أو مع الاتحاد السوفياتي ودول اوربا الشرقية .

وقد تركت هذه التبعية الاقتصادية آثارها على السياسة الداخلية لاسرائيل ، وعلى « مناخها الثقافي » ، لان « صاحب الفضل » الامريكي هو في الوقت نفسه المسام الاساسي في الاراضي المقدسة . ثم ان رجل الاعمال اليهودي الثري يتصرف في بلاده كسواه من رجال الاعمال ، ويمارس تأثيره في اسرائيل باتجاه اكثر الأديان رجعية ، ويبيد حذره من الاشتراكية مها كانت معتدلة سواء تمثلت في «المستدروت» أو «الكيبوتز» ، ويبيد قصارى جهده للحد من نشاطها ، لانه يعتبر نفسه رمزاً للقيادة الحرة وبطلاً من ابطالها ، ورجل الاعمال ايضاً هو الذي يساعد رجال الدين اليهود على المحافظة على تأثيرهم في التشريعات ، وفي التربية الى حد بعيد ، للأبقاء على روح الاستعلاء العنصرية لدى الاسرائيليين ، وليعمق من تمسكهم للتلمود ، وهذا ما سبب في مضاعفة التناقضات بينهم وبين العرب .

ولقد زادت الحرب الباردة من خطورة شق التيارات الرجعية ومن اسباب الخلاف بين اليهود وبين العرب . فقد كانت اسرائيل تأخذ دائماً الجانب المعادي للشيعوية . والحق يقال ، ان هذا الموقف كانت له اسبابه : موجة اللاسامية خلال السنوات الاخيرة لحكم ستالين ، الحجاج المعادية لليهود التي استعملت اثناء محاكمة سنانسكي وراجك وكستوف وتشجيع الاتحاد السوفياتي للقومية العربية في اشكالها المتطرفة ، الخ ... على أنه يجب ان لا يغرب عن البال من ناحية ثانية ، بأن ستالين كان اول من أيد اسرائيل ، وان الاسرائيليين حاربوا خلال عامي ١٩٤٧ - ١٩٤٨ بفضل الاعتدات التشيكوسلوفاكية التي زودوا بها بناء على اوامر ستالين ، وان المندوب السوفياتي في هيئة الامم المتحدة كان اول من اعترف باسرائيل . ويمكن القول بان ستالين لم يبدل موقفه تجاه اسرائيل ، الا لأن هذه

الأخيرة وقفت دائماً الى جانب السياسة الغربية ، يضاف الى ذلك ، ان الحكومات الاسرائيلية لم تدخل أي تغيير على سلوكها هذا على أثر وفاة ستالين .

وهكذا أصبح هدف السياسة الاسرائيلية الاول : الوقوف بأي ثمن في وجه كفاح العرب في سبيل تقدمهم ، وهذا ما يفسر دور اسرائيل في قضية حرب السويس عام ١٩٥٦ . ولقد كان هدف الوزراء الاسرائيليين الاشتراكيين - الديمقراطيين ، والدوائر الاستعمارية الغربية حينذاك هو الابقاء على تحلف العرب ، وعلى الخلافات القائمة بينهم ، واستعمال قوى الاقطاع والرجعية الهاشمية لضرب القوى الجمهورية والثورية . وفي بداية عام ١٩٦٧ ، عندما اعتقد الملك حسين بأن انقلاباً جمهورياً بات يهدده ، لم يتردد اشكول بالقول بأنه في حال حدوث انقلاب ناصر في عمان ، فان القوات الاسرائيلية ستدخل الاردن . وفي مطلع الصيف الفائت ، توالى الاحداث بعد سياسة التهديد التي سارت عليها تجاه النظام السوري الذي اعتبرته متطرفاً في ناصريته (وبالفعل كانت الحكومة السورية تبدو اكثر يسارية ، واكثر معاداة للامبريالية من الحكومة المصرية) .

هل كانت اجهزة المخابرات السوفياتية صادقة في ظنونها ، وهل كانت موسكو صادقة عندما أبلغت عبد الناصر بأن اسرائيل تنوي الهجوم على سوريا في شهر أيار ؟ اننا لا نعلم شيئاً من هذا الأمر ، ولكننا نعرف بأن عبد الناصر أرسل قواته الى حدود سيناء تحت الحاح موسكو ، وبناء على تشجيعها . واذا كان صحيحاً أن اسرائيل كانت تنوي مهاجمة سوريا ، فان مبادرة عبد الناصر ، أدت الى تأخير هذا الهجوم بضعة اسابيع ، اما اذا لم يكن صحيحاً ان اسرائيل كانت جادة في الاعداد للهجوم على سوريا ، فان الموقف الذي اتخذته الاسرائيليون اشعر العرب بخطر يماثل الخطر العربي الذي أحس به الاسرائيليون . وعلى كل حال ، لقد كانت الحكومات الاسرائيلية المتوالية مقتنعة بأن كل بادرة عدائية

تقوم بها ضد سوريا ، أو ضد مصر متكافأ عليها ، وسينظر اليها الغرب بعين
الرضى . ولعبت هذه الحسابات دورها في الهجوم الوقائي الذي شنته اسرائيل
في ٥ حزيران الفائت .

لقد كان الاسرائيليون واثقين تماماً من الدعم المعنوي والسياسي والاقتصادي
الذي سيأتيهم من اميركا ، ويتوقعون ان تساندهم بريطانيا كذلك ، وأنهم - اي
الاسرائيليين - معها تماماً في تصرفاتهم ، فانه يمكنهم الاعتماد على الحماية الدبلوماسية
التي سيوفرها لهم الامريكيون ، وقد اصابوا في تقديراتهم ، ولم يتردد « البيت
الابيض » والبنتاغون في تقدير اولئك الذين انطلقوا - لاسباب خاصة بهم -
لغزو العرب اعداء الأستعمار الامريكي الجديد ، ومثل الجنرال ديان دور المارشال
« كي » في الشرق الاوسط بطريقة فعالة وسريعة ووحشية . ووجدت امريكا
في شخص ديان حليفاً اقل كلفة واكثر كفاءة من حليفها كي .

ان الموقف العربي الذي امتاز بالتردد يتناقض مع الموقف المتصلب والراغب
في القتال الذي اتخذته اسرائيل ، فعندما اعلن عبد الناصر - بتشجيع من
موسكو - عن ارسال قواته الى سيناء ، قرر ايضاً دون استشارة موسكو
اقفال مضائق تيران في وجه الملاحة الاسرائيلية ، ولم يكن لهذا التصرف
- مع انه كان استفزازياً - سوى نتائج محدودة النطاق ، وقدر الغربيون بأن
الأمر لا يستحق الذهاب حتى تيران لاختبار جدية الحصار ، هذا مع العلم بأن
هذه المبادرة ، كانت نصراً معنوياً لعبد الناصر لانه ازال اخر آثار حرب السويس
(ونذكر هنا ، بانه قبلي حرب السويس ، لم يكن يسمح للسفن الاسرائيلية
بالمرور عبر مضائق تيران) ، وزعم الاسرائيليون حينئذ بان الحصار هو بمثابة
خطر عميق يهدد حياتهم الاقتصادية ، وهذا ليس صحيحاً . وردوا على الحصار
باعلان التبعية وتوزيع قواتهم على الحدود .

ولكن المسؤولية الحقيقية يجب التفويض عنها في الكرملين - معها كانت الاخطاء

التي وقع فيها العرب - لقد كان موقف بريجنيف وكوسيفين مماثلاً للموقف الذي اتخذته خروتشيف اثناء الازمة الكوبية ، فالذي حدث اولاً هو اثاره استفزاز غير ضروري ، وتقدم غير حذر حتى حاقة الحرب ، ثم تلا ذلك دعر مفاجيء وانسحاب سريع ، واخيراً جهود غير كافية حتى لا تفقد موسكو ماء وجهها ، وحتى تمسح اثار الفشل . لماذا طلبت موسكو من عبد الناصر ان يمتنع عن أي عمل عسكري بعد أن غدت مخاوف العرب من اسرائيل ، وشجعتهم الى حد المجازفة ، ووعدتهم بالدعم والتأييد ، وارسلت وحداتها البحرية الى المتوسط للوقوف في وجه تحركات الاسطول السادس الامريكي ؟ .

عندما تصاعدت الازمة ، تحرك « الهاتف الاحمر » بين الكرملين ، وبين « البيت الابيض » ، وقرر الطرفان الكبيران تهدئة الاطراف المتنازعة . وبينما قدمت امريكا توصياتها للاسرائييين بطريقة شعر من خلالها هؤلاء ، وكأنها تشجعهم على الهجوم الوقائي (ولم يصل الى اسماعنا معلومات تقول بأن السفير الامريكي ايقظ رئيس الوزراء الاسرائيلي لكي يطلب اليه بالحاح بأن لا يفتح الاسرائيليون النار) حذر السوفيات عبد الناصر بطريقة حاسمة . وبالرغم من ذلك فأننا نتساءل عن الاسباب التي جعلت عبد الناصر لا يأخذ الترتيبات المناسبة !.. هل قال السفير السوفياتي - اثناء مقابله الليلية - لعبد الناصر بأن موسكو مقتنعة بأن الاسرائييين لن يفتحوا النار .. هل تكون واشنطن هي التي قدمت هذا التأكيد لموسكو ؟ .. هل هي سداجنة السوفيات الذين قبلوا بجدية هذا التأكيد وتصرفوا بوحى منه ؟ كل ذلك لا يصدق .. ولكن هذه الفرضيات هي وحدها التي تتيح تفسير موقف عبد الناصر ، والدهشة التي بدت على السوفيات عندما نشبت الحرب .

وراء هذا الغموض يبدو ذلك التناقض الحاد في السياسة السوفياتية ، فالمسؤولون السوفيات يرون في بقاء الاوضاع العالمية على حالها « بما في ذلك

الايضاح الاجتماعية ، الشرط الاساسي لسلامتهم القومية ، و« للتعايش السلمي » ، ولهذا نراهم يقفون على مسافة معينة من الاماكن التي تحدث فيها تفسيرات اجتماعية ، ويتجنبون المجازفات الخطرة. ولكنهم من ناحية أخرى لا يستطيعون لاسباب عقائدية وسياسية تجنب المواقف الخطرة تجنباً تاماً . فالاستعمار الامريكى الجديد بصطدم بصورة مباشرة وغير مباشرة باعدائه الافرو - اسويين والامريكيين اللاتينيين الذين يتجهون لموسكو لطلب العون والحماية. وفي الاحوال العادية ، يبقى هذا التناقض كامناً : فهم يساعدون بحذر أصدقاءهم الافرو - اسويين والامريكيين اللاتينيين ، ويزودونهم بالسلاح ، ولكن عاجلاً أو اجلاً ستنفجر الازمة ، وسيصبح من المستحيل اخفاء معالم هذا التناقض ، وينبغي لموسكو عندئذ ان تختار واحداً من امرين : أما الابقاء بأي ثمن على الاوضاع القائمة ، وأما دعم اولئك الذين ينشدون تغييرها ، وقد اختارت موسكو حتى الان جانب المحافظة على الاوضاع القائمة .

وانها لمشكلة حقاً . . قد يكون لها نتائجها الخطيرة في هذا العصر الذري . . إن الاوضاع الحالية هي ثمرة العلاقات الاسرائيلية - العربية التي كانت - وما تزال - قائمة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وحتى منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى ، وعلى كل حال ، اظن بأن الاسرائيليين كان امامهم في بعض الاحيان الفرصة لممارسة اختيار شكل آخر لعلاقاتهم مع العرب ، واسمحووا لي بأن اشير الى مثل استخدمته دائماً عندما كنت اعرض المشكلة امام جمهور اسرائيلي :

« في يوم من الايام ، قفز رجل من الطبقة الاخيرة لمهارة التهمة النيران وقضت على عدد من أفراد عائلته ، ونجا الرجل بهذه الطريقة من الموت ، ولكن عند سقوطه ، اصطدم برجل اخر كان يقف امام المنزل المحترق فكسر له ذراعيه وساقيه . وحدث ذلك بدون ارادة الرجل الذي قفز ، ولكن الشخص المصاب اعتبره سبب المصيبة التي ألمت به . . ولو ان الرجلين التزما جانب العقل وتصرفا

بمحكمة لما تحولوا إلى عدوين، ولو ان الشخص الذي فر من النيران - بعد ان استعاد قوته - هب إلى مساعدة ضحيته واعانته ، لادرك هذا الاخير ان مصيبتة نجمت عن ظروف لا سبيل إلى السيطرة عليها ، ولا يتحمل مسؤوليتها أي كان ، ولكن اذا لم يحدث شيء من هذا القبيل - أي لم يسلك الطرفان السبيل الذي افترضته - فان الرجل المصاب سيحمل الاخر مسؤولية ما أصابه ، وسيقسم على الاقتصاص منه ، سيمد هذا الاخير بدوره تحت تأثير الخوف من الانتقام إلى اساءة معاملة غريمه كل مرة يلتقاه ، وهكذا دواليك ... وهكذا يحول كل من الطرفين حياة الطرف الاخر إلى جحيم لا يطاق .

و كنت اقول للجمهور الاسرائيلي الحاضر بانني أشبه « الرجل الذي يقفز من المنزل المحترق » باليهود الاوروبيين الذين جاؤوا إلى اسرائيل ، أما الرجل الاخر فإنه يمثل عرب فلسطين الذين فقدوا أرضهم ، ويتجاوز عددهم المليون نفس ، تفترسهم المرارة وهم ينظرون إلى الجانب الاخر من الحدود حيث كانت بلادهم ، وهم يهاجمونكم بعنف ويقسمون على الانتقام منكم ، وانكم تسؤون معاملتهم بلا رحمة ، وقد اتفقتم على ذلك .. وما هي الفائدة من ذلك ؟ .. هل هذا يساعد على ايجاد حل ؟ .. » .

اليست الحضارة البرجوازية الغربية التي افرزت النازية هي المسؤولة عن المذابح والمصير الدامي الذي واجهه اليهود الاوروبيون في اوشويتز وماجدانك؟ ومع ذلك فقد طلب من العرب ان يدفعوا ثمن هذه الجرائم . وما تزال المأساة مستمرة . فالغربيون بتأثير من عقدة الذنب التي تملكهم يقفسون الى جانب الاسرائيليين ويمادون العرب ، واسرائيل تقبل الاموال التي تعطى اليها لتقوية نفسها .

و كان يمكن ان تقوم علاقات معقولة بين الاسرائيليين وبين العرب لو ان اسرائيل بذلت جهداً في هذا ، ولو ان الرجل الهارب من النار جرب ان يخفف من المصيبة التي نجمت عن سقوطه ، والتي نزلت بشخص بريء ، ولكن الامور

اتخذت شكلاً مغايراً ، فلم تعترف اسرائيل مطلقاً بشرعية الآلام التي اصابته العرب . ومنذ البداية ، حاولت الصهيونية ان تقيم دولة يهودية صرفاً ، وكانت سعيدة بتخلصها من السكان العرب ، ولم تفكر أية حكومة اسرائيلية جدياً بالعمل على تخفيف اسباب الشكوى لديهم . وطلب من الدول العربية - قبل ان تهتم بمصير العدد الكبير من اللاجئين - الاعتراف باسرائيل ، أي ان تستلم سياسياً قبل ان تتفاوض معها . ولا شك بأن الأمر كان يتعلق بالدرجة الاولى بتكتيك دبلوماسي ، وتدهورت الاوضاع الى مستوى خطير اثناء تتابع احداث قضية السويس ، عندما قبلت اسرائيل بأن تلعب دور رأس حربة للامبرياليين الاوروبيين القدماء - الذين كانوا في النزاع الاخير - وايدت محاولتهم للبقاء في مصر ، ولم يكن هناك ما يجبر الاسرائيليين على التضامن مع المساهمين في شركة قناة السويس ، وكان الموقف واضحاً للعيان ، بحيث انه كان من الصعب على أي كان الادعاء بان الخير والشر قد اختلطا الى درجة بات من المستحيل فيها التمييز بينها ، وقد اختار الاسرائيليون حينذاك سواء على الصعيد المعنوي ، أو على الصعيد السياسي الجانب السيء .

ويبدو الصراع الاسرائيلي العربي ظاهرياً على انه - بكل بساطة - صدام قوميتين متنافستين كل منهما اسيرة مطامعها التي تدعي بأنها شرعية وان اية وجهة نظر ايمية تجريدية تحكم عليها بالرجعية ، ولكن ذلك يعني تجاهل معطيات الوضع الاجتماعي والسياسي ، اذ انه لا يمكن مقارنة القومية الشعبية الموجودة بقومية الغزاة واولئك الذين يمارسون سياسة القمع ، فالقومية الشعبية لها وحدها مبرراتها التاريخية وجانبها القومي ، وتجب تصنيف القومية العربية - وليس القومية العربية الاسرائيلية - ضمن هذه الفئة .

وعلى كل حال ، فالأمر لا يتعلق هنا بتأييد قومية المستعمرين والمسحوقين تأييداً أعمى ، لأن هذه القومية تمر بمراحل مختلفة ، ففي مرحلة ما تكون التطلعات التقدمية هي المسيطرة وفي مرحلة أخرى تبرز الاتجاهات الرجعية .

وما ان يطل الاستقلال ، او يقترب موعد تحقيقه . تبدأ القومية بفقد طابعها الثوري وتميل الي ايدولوجية رجعية وقد شاهدنا ذلك في الهند ، واندونيسيا واحرائيل ، ومن خلال بعض الجونب - في الصين . وبتصنيف سلوك كل قومية حتى اثناء مرحلتها الثورية - بطابع لا عقلي: الاتجاه نحو الانطواء على النفس ، العنصرية ، الخ . . . وان القومية العربية بالرغم من ميزاتنا التاريخية الناصعة ، ودورها في خدمة التقدم لا تخلو من بعض الشوائب .

لقد اوضحت ازمة شهر حزيران بصورة جلية بعض نواحي الضعف الاساسية في نظام التفكير والعمل السياسي العربي : غياب الاستراتيجية السياسية ، المسئل نحو تعبئة الجماهير بطريقة غير سليمة ، الاستعانة بأساليب الديماغوجية القومية السهلة . وقد لعبت نواحي الضعف هذه دوراً حاسماً في الهزيمة العربية . وعندما سمع بعض القائمين على الدعاية في مصر والاردن لأنفسهم باطلاق تهديدات نحو اسرائيل واقناهما (وقد تبين انها تهديدات ليس لها اساسها الحقيقي عندما تكشف فيما بعد عدم الاستعداد العسكري الشامل لدى العرب) غنوا بطريقة من الطرق التعصب الاسرائيلي ، اتاح المجال للحكومة الاسرائيلية لاستغلال مشاعر الحنوف والغضب التي سيطرت على الجماهير ، وتسخيرها لضرب العرب بوحشية .

وان الحرب - كما هو معروف - توضيح معنى السياسة ، وقد برهنت حرب الايام الستة النقص النسبي في الوعي الذي تتمتع به الانظمة العربية القاغة ، فالنصر الذي احرزته اسرائيل لا يعود إلى الهجوم الوقائي الذي شنته وحسب ، وانما ايضاً إلى اساليب التنظيم الاقتصادي والسياسي والعسكري والعنصري . وقد منعت الحرب - إلى حد ما - العالم الفرصة لمعرفة التقدم الذي حققه العرب منذ حرب السويس ، والذي تبين بأنه لم يكن كافياً ، ويجب بذل جهود كبيرة لتطوير الفكر السياسي ، وتحويل البنيات الاجتماعية - الاقتصادية في مصر وسائر

البلدان العربية إلى بنيات عصرية ... جهود تتجاوز ما يتصوره البعض في هذه البلدان .

ويرتبط التخلف القائم - ولا شك - بعوامل اجتماعية واقتصادية ، ولكن الأيدولوجية واساليب التنظيم لها دورها وتأثيرها . وهكذا وقفت « عبادة » الناصرية ، والحزب الواحد ، وغياب كل نقاش حر في طريق تربية الجماهير سياسياً ، وعرقلت التقدم الاشتراكي ، وقد ظهرت النتائج السلبية في كل ميدان وعلى شتى المستويات . وعندما تكون مسؤولية القرارات الأساسية محصورة في يد الرئيس وحده ، يصبح الصعب بعيداً عن المشاركة في حياة بلاده السياسية ، وتفقد الجماهير يقظتها ومبادرتها ... وهذا صحيح في الأحوال العادية ، وفي حالة الحرب يمكن ان نتجم عنه عواقب خطيرة . ان الهجوم الوقائي الذي شنه الاسرائيليون بأسلحة تقليدية ما كان ليؤدي إلى الكارثة التي حدثت لو ان الجيش المصري كان يعتمد على المبادرة الفردية ، لجنوده ولضباطه ، ولتمكن القيادة المحليون من اتخاذ الاجراءات الاولية دون انتظار الاوامر من فوق . ولقد كان الاهمال العسكري دليلاً على وجود ضعف عام اصاب التنظيم الاجتماعي والسياسي ، وعرقلت البيروقراطية العسكرية الناصرية الاندماج السياسي لحركة التحرير العربية .

ولا شك بأن الديماغوجية القومية ليست هي وحدها مصدر العيوب ، ولكنها لا يمكن ان تحل مكان الانطلاقة الاصلية نحو الوحدة القومية ، أو أن تكون تعبئة للقوى الجماهيرية ضد الرجعية والاقطاع وقوى الانقسام ، إلى ذلك كله ، انه في حال الاعتماد على رئيس واحد - حالة خطيرة كالتى شاهدنا - تصبح البلدان العربية أكثر تعرضاً لتدخل الدول الكبرى والحوادث الدبلوماسية .

ويبرز الاسرائيليون الان بطريقة متناقضة وغير مجدية وكأنهم يلعبون

دور بروسي الشرق الاوسط .. وها قد حدثت حروب ثلاث تغلبوا فيها على جيرانهم العرب . وكان البروسيون لقرن مضى قد انتصروا بالطريقة نفسها على جميع جيرانهم الدانمركيين والنمساويين والفرنسيين ، مما ولد لديهم ثقة مطلقة بفعالية اسلحتهم ، وسيطرت عليهم مشاعر عصبية استعلائية رافقها احتقار لبقية الشعوب . ويمكن ان يحدث تدهور سياسي من النوع ذاته في اسرائيل (والامر يتعلق فعلا بالتدهور السياسي) . وعلى كل حال ، لا يمكن لاسرائيل ان تقلد دور «بروسي الشرق الاوسط» الا بصورة باهتة ومهزوزة قياساً للدور الاصلي . فالشيء الذي حققه البروسيون كان توحيد جميع الشعوب الناطقة بالالمانية والتي كانت تعيش خارج حدود الامبراطورية النمساوية الهنغارية . وكانت البلدان المجاورة لالمانية منقسمة على نفسها لاختلاف المصلحة والتاريخ والدين واللغة ، واستطاع بسمارك ، وغليوم الثاني ثم هتلر استغلال اسباب التفرقة هذه بخلاف الاسرائيليين الذين يحيط بهم العرب من كل الجهات ، وسببوا بالفشل ، كل محاولة يقوم بها الاسرائيليون لاستغلال الخلافات القائمة بين العرب .

ففي عام ١٩٤٨ ، عندما شن الاسرائيليون حربهم الأولى ، كانت الخلافات تمزق صفوف العرب ، وخفت حدتها مع عام ١٩٥٦ حين اندلعت الحرب الثانية ، وفي عام ١٩٦٧ ، شكل العرب جبهة مشتركة ، وقد يزداد عمق هذه الجبهة فيما لو حدثت جولة جديدة بين اسرائيل وبين العرب .

وقد تلقى الالمان درساً بليفاً من تجربتهم الذاتية عبروا عنه بصيغة تطفؤ عليها مرارة عميقة « يمكن للنصر ان يجعلك تحفر قبرك بيدك » ، وهذا ما حدث للاسرائيليين الذين لم يعرفوا كيف يتصرفون . ويوجد الان في اسرائيل مضافاً اليها الاراضي المحتلة حديثاً ما يربو على المليون ونصف مليون عربي ، أي ما يزيد على الاربعين بالمائة من مجموع سكانها .. هل ستعمد اسرائيل في سبيل ضمان انتصاراتها الى طرد السكان العرب ؟ . واذا حدث شيء من هذا ، فسيؤدي ذلك

إلى مشكلة لاجئين جديدة اشد خطراً من الأولى .. أم انها ستتخلى عن الاراضي التي احتلتها اخيراً ؟ .. وهذا غير وارد اذا اخذنا بعين الاعتبار تصريحات المسؤولين الكبار فيها .

ويدعون غوريون داعية التعصب الاسرائيلي إلى اقامة دولة فلسطينية عربية ، متاخمة لنهر الاردن .. دولة تكون تحت الحماية الاسرائيلية . هل تتوقع اسرائيل بان يقبل العرب بقيام هذه المحمية ؟ وبأنهم لن يسخروا كل طاقاتهم للحوول دون النشائها ؟ ولا يوجد في اسرائيل كلها حزب واحد يفكر بانشاء دولة فدرالية عربية - اسرائيلية ، ويانتظار ان يحدث شيء ما ، اقنع ، عدد كبير من العرب بمغادرة بيوتهم على ضفاف الاردن ، أما مصير من بقي منهم فهو أشد سوءاً من مصير الاقلية العربية في اسرائيل التي خضعت طوال تسع عشرة سنة للقوانين العسكرية .

ان هذا النصر بالنسبة لاسرائيل هو أشد ضرراً لها من الهزيمة ، ولقد اضعفها بدلاً من ان يوفر لها الامن والاستقرار . وإذا كان الاسرائيليون قد ارهبهم دائماً الوقوع تحت ضربات الانتقام العربي ، وتحرفوا من خطر الفناء على يد العرب ، فانهم - أي الاسرائيليين - فعلوا ما بوسعهم لتحويل الوجود العربي المحيط بهم إلى تهديد حقيقي .

وخلال الفترة التي شهدت وقف اطلاق النار ، خيل للكثيرين أن هزيمة مصر ستؤدي إلى سقوط عبد الناصر والسياسة التي ارتبطت باسمه . ولو حدث ذلك ، لعاد الشرق الاوسط تقريباً بأكمله إلى حظيرة النفوذ الغربي ، ولتحولت مصر إلى غانا أو اندونيسيا جديدة ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث بسبب مبادرة الجماهير الشعبية العربية التي اجتاحت شوارع القاهرة ودمشق وبيروت تطالب عبد الناصر

بالبقاء في الحكم ، وانها لحظة من لحظات التاريخ النادرة ، التي يمكن فيها للانطلاقة الشعبية ان تعيد أو تدمر التوازن السياسي . واستطاعت هذه الحركة النابعة من الجماهير وسط جو الهزيمة أن تشمر الجميع بثقلها ، ونادراً مساهمة التاريخ شعباً يدعم رئيسه المهزوم ، ولا ريب بأن الوضع ما زال مضطرباً بالقوى الرجعية ما تزال تفضط داخل الدول العربية ، ولكن الاستعمار الجديد حرم حق هذه اللحظة من جني ثمار انتصار اسرائيل المزعوم .

من بين الآثار التي خلفتها الحرب ، الاهتزاز الجدي الذي اصاب نفوذ الاتحاد السوفياتي وسمعته .. هل هذه ظاهرة متبادلة؟ وهل سيؤثر ذلك في خط موسكو السياسي ؟ .

خلال شهر حزيران .. كانت ردة الفعل التي شملت القاهرة ودمشق وبيروت هي « لقد تخلى الروس عنا » ، وعندما شاهد العرب المندوب السوفياتي في هيئة الامم يصوت مع الامريكيين الى جانب وقف اطلاق النار دون فرض شروط مسبقة كأنسحاب القوات الاسرائيلية غمرهم احساس بأن الجميع قد خانوهم ، وذكر ان عبد الناصر قال للسفير السوفياتي « لقد اصبح الاتحاد السوفياتي منذ الآن دولة من الدرجة الثانية او الثالثة » . ويبدو بأن الاحداث قد اظهرت صحة ما يقوله الصينيون عن اتهام السوفيات بالتواطؤ مع الامريكيين . وسبب سلوك الروس قلقاً في اوروبا الشرقية ، فقال التشيكيون والبولونيون « اذا تخلى الاتحاد السوفياتي عن مصر بهذه الطريقة ، ففسد يحدث شيئاً مماثلاً اذا هاجم الالمان بلادنا ؟ » .. وسيطر التأثير على اليوغوسلافيين ، وطسار تيتو وغومولكا وسواهما من الزعماء الى موسكو للمطالبة بتفسيرات وللحصول على وعد بأن الروس سيساعدون العرب على الخروج من المأزق وان يثير الدهشة ، ان هذه المساعي بذلها « المعتدلون » و « التعريفيون » الذين ينادون عسادة بالتعايش السلمي ، وسياسة التقارب مع الولايات المتحدة .. وهؤلاء هم الذين اتهموا الاتحاد السوفياتي بالتواطؤ مع الامريكان .

وكان لا بد من عمل شيء ما .. واتاحت بادرة الجماهير التي انقذت نظام عبدالناصر المجال لموسكو لكي تتبنى أسس عمل جديدة، واطهر القادة السوفيات - بعد التخلي الكبير - انفسهم مرة اخرى بمظهر اصدقاء البلدان العربية وحماها، وكان يكفيهم لتأكيد ذلك القيام بحركات مسرحية، كقطع علاقاتهم الدبلوماسية مع اسرائيل، والقاء الخطب في هيئة الامم المتحدة . وابدى « البيت الابيض » تفهمه للموقف الحرج، ولضرورات التكتيك التي انتهت بوصول كوسيفين الى هيئة الامم المتحدة .

لكن التصرفات وحدها لا تكفي لاعادة الاتحاد السوفياتي الى مركزه، فقد الح العرب على الاتحاد السوفياتي بأن يعيد على الفور بناء قوتهم العسكرية . تلك القوة التي فقدوها نتيجة النصائح السوفياتية، وطالبوا بطائرات ودبابات واسلحة وذخيرة . واعتبرت موسكو هذه المطالب باهظة التكاليف (وكانت مصر قد خسرت وحدها معدات حربية بقيمة مليار جنيه) ، خاصة وان هذه المطالب في حال تحقيقها تحمل في طياتها مجازفات سياسية هامة : فالعرب يرفضون التفاوض مع اسرائيل ويفضلون ان تنام على انتصارها . واعطيت القاهرة الاولوية المطلقة لموضوع اعادة التسليح فقد اتعظ المصريون بالدرس الذي لقنتهم اياه اسرائيل : في المرة القادمة، من المتوقع ان يوجه طيرانهم الضربة الاولى، واذا كان السوفيات قد قرروا تزويدهم بالسلاح فهذا يعني بأنهم يوافقون على ذلك .

ولا يمكن لموسكو ان تكون من انصار هجوم معاكس من هذا النوع يقوم به العرب ، ولكنه يستحيل عليها في الوقت ذاته ان ترفض اعادة تسليح مصر ، يضاف الى ذلك ان الاسرائيليين قد تحدثهم نفسهم وهو يرون العرب يعيدون تسليح انفسهم بشن هجوم وقائي لتعطيل هذه الخطوة - خطوة التسليح - وسيجد الاتحاد السوفياتي نفسه أمام المعضلة التي واجهها في المرة السابقة ، فمن المؤكد ان الولايات المتحدة ستتدخل ، ولا يعقل ان يكتفي الاسطول السادس بمشاهدة الطيران الاسرائيلي يتعظم ، والقوات العربية تتقدم في طريقها الى القدس

او تل ابيب ، وفي حالة كهذه ، لا يمكن للاتحاد السوفياتي ان يمتنع عن التدخل دون ان يؤدي ذلك الى فقدانه مكانته - الى الأبد - كدولة كبيرة عالمية .

وعلى أثر وقف اطلاق النار بأسبوع واحد ، حضر رئيس اركان الحرب السوفياتي الى القاهرة ، وامتألت فنادق القاهرة بالمستشارين والخبراء الروس الذين جاؤوا لاعادة بناء القوات المسلحة المصرية، وعلى كل حال، لا يمكن لموسكو ان تفكر بدون قلق باحتمالات صدام مسلح - يتغلب فيه الطرف الذي يضرب اولاً - بين العرب وبين الاسرائيليين ، وكل العواقب التي سيجرها.

ويمكن للمرء ان يفترض أن الغاية من وجود الخبراء في القاهرة هو كسب الوقت ، في الوقت الذي تحاول فيه الدبلوماسية السوفياتية « كسب السلام » لصالح العرب بعد ان سببت في خسارتهم للحرب . الا ان كل ذلك لن يحل المشكلة الاساسية التي تعانها السياسة السوفياتية: فالى مدى سيكون الاتحاد السوفياتي قادراً على ترتيب اوضاعه للتكيف مع كل خطوة جديدة يقدم عليها الامريكويون؟ والى متى سيتقهقر امام الهجمات الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي تشن في الميدان الافرو - آسيوي؟ ولم تكن مجرد مصادفة ، ان تعلن جريدة « كراسنايا زفسدا » خلال شهر حزيران عن ان رأي السوفيات في التعايش السلمي قد يحتاج الى اعادة النظر ، ويخشى العسكريون وسواهم ان تؤدي التراجعات السوفياتية الى تشجيع الاميركيين على التقدم الى الامام ، وان يقود ذلك بدوره الى صدام مباشر بين السوفياتية الى تشجيع الامريكويين على التقدم الى الامام ، وان يقود ذلك بدوره الى صدام مباشر بين السوفيات وبين الاميركان . واذا فشل بريجنيف وكوسيفين في ايجاد حل لهذه المشكلة ، فليس من المستبعد ان ينجم عن ذلك تغيير في الحكومة . في الماضي ، لعبت ازمة كوبا وفيتنام دورها في اسقاط خروتشيف ، وان المستقبل وحده هو الذي

سيصبح معرفة نتائج ازمة الشرق الاوسط .

على أنني لا اظن بأن الحل سيبه السلاح ، وحتماً ، ليس هناك من يشك بحق العرب باعادة بناء قواتهم المسلحة ، ولكن ما يحتاجون اليه أولاً هو ان تتوفر لديهم استراتيجية اجتماعية وسياسية ، وان تتغير أساليب نضالهم في سبيل التقدم ، وعليهم ان يتخلوا عن الاستراتيجية السلبية التي تقوم فقط على تنفيذ الكابوس المعادي لاسرائيل . ان بإمكانهم رفض الدخول بمفاوضات ما دامت اسرائيل لم تفسح من الاراضي التي احتلتها ، وبإمكانهم ايضاً مقاومة نظام الاحتلال القائم في الاردن - الضفة الغربية - وقطاع غزة ، ولكن دون أن يؤدي ذلك بالضرورة إلى حرب جديدة .

وان الشيء الذي يمكن ان يمنح العرب نصراً أصيلاً ... نصراً حضارياً ، ليست الحرب المقدسة ، ولا الهجوم الوقائي ، وانما استراتيجية تعتمد دون تأخير إلى تحويل البنيات الاقتصادية والسياسية إلى بنيات عصرية حديثة ، وإلى توحيد الحياة الوطنية التي ما تزال مجزأة إلى الآن نتيجة خلافات من شتى الالوان ينفذها الامبرياليون ، ولا يمكن تحقيق هذه النتائج إلا إذا ازداد تأشير الاتجاهات الثورية والاشتراكية في الحياة السياسية العربية .

واخيراً .. ستكون القومية العربية اداة تحرير أشد فعالية ان هي اتسمت ببعض الامية ، لان ذلك « يعقلنها » ، ويتيح للعرب التفكير بالمشكلة الاسرائيلية عبر نظرة اكثر واقعية ، وليس بإمكان العرب تجاهل حق اسرائيل بالوجود ، واطلاق التهديدات العنيفة إلى ما لا نهاية . فالتقدم الاقتصادي ، والتصنيع والتعليم ، والتنظيم الافضل والسياسة القائمة على مزيد من العقل وليس التفوق العددي ، ولا الدعاية المعادية لاسرائيل كذلك هو السبيل الوحيد لكي يصبح العرب فعلاً القوة المؤثرة الاساسية .. وعندها ستعود اسرائيل اليها إلى حجمها

التواضع ، والى دورها الذي يمكن ان تقوم به في قلب الشرق الاوسط .

ولا يتعلق الامر هنا ببرنامج قصير المدى ، غير انه من الممكن ان يتحقق في مستقبل قريب نسبياً ، وعلى كل حال ، لا يوجد هناك طريق اخر يقود إلى هذه الغاية ، فقد اثبتت طرق الديماغوجية والانتقام والحرب ما كانت تستحقه من قيمة .

وينبغي ان يكون هدف العرب الفوري مخاطبة الشعب الاسرائيلي والعمال وسكان « الكيبوتز » - التعاونيات الزراعية - مباشرة ودون المرور بالحكومة ، لانه يجب اقناع الشعب الاسرائيلي عن طريق تقديم ضمانات حاسمة له ، كان يقال له بأن حقوقه الشرعية ستكون موضع الاحترام ، وانه يمكن لاسرائيل ان تأخذ مكاناً لها في اتحاد الشرق الاوسط .. وخطوة كهذه ، ستخفف من حدة التعصب الاسرائيلي ، وستساعد على نمو معارضة شعبية ضد سياسة الغزو وضد سيطرة اشكول وديان ، وستجاوب العمال الاسرائيليون مع نداء من هذا النوع بأكثر مما قد يتصوره المرء .

ويجب على بلدان الشرق الاوسط ان تبتعد اكثر عن لعبة الدول الكبرى التي ما انفكت حتى الآن تعطل تقدمها السياسي والاجتماعي ، وقد بينت الى أي حد كان النفوذ الامريكي قد ساعد على طبع السياسة الاسرائيلية بطابع التعصب المشين ، ومن ناحية أخرى ، كان النفوذ السوفياتي قد ترك اثاره السيئة على العرب عندما غذى لديهم الشعارات العقيمة ، ونشر الديماغوجية بين صفوفهم ... علاوة عن المرارة التي خلفتها سياسة موسكو الانانية والانتهازية . واذا بقيت سياسة الشرق الاوسط مجرد اداة تحركها الدول الكبرى ، فان التطورات ستسير نحو مزيد من التدهور ، ولن يتمكن لا اليهود ولا العرب من الخروج من الازمة التي تحيط بهم . وانني كأ انسان يساري اوجه تحذيري هذا الى هؤلاء واولئك بأكثر قدر يمكن من الوضوح والصرامة .

ولا بد هنا من الاعتراف بأن الحرب الاسرائيلية قد اربكت اليسار الدولي . فالغموض كان شديداً ، ولا اتحدث هنا عن « أصدقاء اسرائيل » كالسيد موليه وسواه من أمثال اللورد آفون وساوين لويد الذين وجدوا في الحرب استثنافاً لحمة السويس ، وفرصة للانتقام من هزيمة ١٩٥٦ ، ولا اتحدث ايضاً عن الاحتكارات الصهيونية المرتبطة بالجنح اليميني المتطرف في حزب العمال... وحتى بين صفوف اليسار المتطرف داخل هذا الحزب . ان موقف شخص كسدي سيلفرمان ، جعل المرء يفكر بأنه يمكن ايقاظ الصهيونية النائمة لدى السياسي اليساري اليهودي .

ولقد رأينا الغموض يسيطر على من هم أكثر يسارية ، على اولئك الذين ناضلوا بصورة دائبة ضد الامبريالية ، فقد تضامن كاتب فرنسي - عرف دائماً بمواقفه الجريئة ضد حرب الجزائر وحرب فيتنام - مع اسرائيل ، واعلن بأنه اذا كان انقاذ اسرائيل يحتم تدخل الامريكيين ، فإنه يؤيد هذا التدخل ، وذهب الى حد القول « يعيش الرئيس جونسون ! » .. ويبدو أنه لم يهتم بالتناقض الذي وقع فيه وهو يهتف « يسقط جونسون » . بالنسبة لفيتنام ، و « يعيش جونسون » وهو يتحدث عن اسرائيل ، ودعا جان بول سارتر بتحفظ الى التضامن مع اسرائيل ، ولكنه اعترف بالضيق الذي عاناه ، وحاول ان يشرح موقفه فقال إنه تعلم في أثناء المقاومة - والمقصود هنا مقاومة الاحتلال النازي - كيف يعامل اليهودي كأخ يجب الدفاع عنه مهما كانت الظروف . وخلال حرب الجزائر ساند العرب مساندة الاخوان . أما بالنسبة للصراع الذي نشب فإنه قد اعتبره قتالاً بين أشقاء له ، وكان يستحيل عليه الحكم على الامور بطريقة باردة دون الوقوع تحت سيطرة مشاعر متناقضة .

ومها يكن من أمر ، فيلبي أن تتوفر لدينا رؤية عادلة للأوضاع ، وان لا نترك المواطنين والذكريات - مهما كانت حية في نفوسنا - ان تظفي علينا .

ويجب ان لا تضغط علينا ذكرى « اشويتز » ، وان لا تدفعنا الى الوقوف مع الجانب السيء . وانني اتكلم كما كسي من أصل يهودي ، شهد موت قسم من عائلته في « اشويتز » ، وله أقارب في اسرائيل . ان المرء يلحق ضرراً كبيراً باسرائيل ان هو حاول ان يبرر او أن يغفر لها الحزوب التي شنتها ضد العرب . . وهو ان فعل ذلك يسير باتجاه مناقض لمصلحتها على المدى الطويل .

وهؤلاء الاصدقاء قد غدوا بقصد أو بغير قصد الموجة الرجعية التي غمرت البلاد اثناء الازمة . وقد تألمت كثيراً وانا أشاهد المناظر التي عرضها التلفزيون: الغزاة يعرضون وحشيتهم ، ومظاهر التعصب ، والاحتفالات المذهلة بنصر لا عجل له . . وكل هذه المشاهد ، كانت تتناقض مع صور الآلام والاسى التي أصابت العرب ، مع طوابير اللاجئين ، وجثث الجنود المصريين الذين ماتوا عطشاً في الصحراء . واقتربني الألم وانا أرى رجال الدين اليهود يرقصون طرباً بجانب حائط المبكى ، وبدأ لي بأن البلاد قد خيم عليها التعصب التلمودي الذي أعرفه جيداً ، والذي يضيق على انقاسي ، ثم كان هناك المقابلات التي اجريت مع الجنرال دايان البطل القومي الذي لم يتحدث إلا عن ضم الاراضي المحتلة بلغة تدل على تخلف في الوعي السياسي ، وأجاب عندما سئل عن مصير عرب الاراضي المحتلة قائلاً بوقاحة « وماذا يعني من هذا الأمر ؟ بإمكانهم الذهاب او البقاء ؟ فإنني لا أبالي بذلك » . ولقد تحول هذا الرجل الى بطل اسطوري مزيف (وأقول مزيف لانه ليس هو الذي أعد خطة حرب الأيام الستة ، وبرز بدور جديد يوشعه لان يتحول الى ديكتاتور : والفكرة الكامنة وراء هذا الميل هي انه اذا كان المدنيون قد أبدوا لينا تجاه العرب ، فان هذا الديفول المصغر قادر على رد العرب الى مكانهم ، وعلى رفع « مجد » اسرائيل نحو مكان أرقى واسمى .

وراء دايان ، يقف مناحيم بيغن الوزير وزعيم الحزب الصهيوني المتطرف في يمينته الذي يطالب منذ وقت طويل بشرقى الاردن لأنه من الناحية التاريخية جزء متمم لاسرائيل . ومن المؤكد ان الحرب الرجعية لها امتدادات في الاتجاه

نفسه ، ويتجسد طابعها واهدافها في نماذج الابطال التي تخلقها . ويمكن القول
- على مستوى آخر - بأن قادة اسرائيل يعطون للمأساة التي عاشها اليهود
تتمة تاريخية تفقدها معناها الحقيقي حتى ولو استمروا في ترديد اسماء « اشويتز »
و « تريبلنكا » لتبرير تصرفاتهم .

وقد دفع اليهود غالباً ثمن الدور الذي اضطروا إلى ادائسه في الماضي ...
دور الممثلين لاول شكل من اشكال الرأسمالية في مجتمع زراعي ، فقد كانوا هم
التجار ، وهم الذين كانوا يقرضون الأموال . ومع نمو الرأسمالية اصبح هذا
الدور - الذي انفرس في اذهان الناس عنهم - مجرد دور ثانوي ، فكانت
الاكثرية الساحقة من اليهود في اوروبا الوسطى تتكون من حرفيين صغار
مساكين ، وتجار صغار ، وبروليتاريا ومن هم دون البروليتاريا ، ومن أناس
بؤساء . ولكن الخيال الشعبي الذي انفرس فيه صورة التاجر الثري والمرابي
اليهودي (الذي ينحدر مباشرة من اولئك الذين صلبوا المسيح) ولد لدى الناس
الحذر والخوف . وقد استغل النازيون هذه الصورة وبالغوا في ابرازها وفرضوها
على عقول الجماهير .

ولم تلتزم اسرائيل باعطاء الناجين من اليهود الاوروبيين « وطناً قومياً »
وحسب ، بل التزمت ايضاً بتحريرهم من لعنة الجدود التي التصقت بهم .. ومن
اجل ذلك تم النشاء « الكيبوتزات » ، و « المستدروت » والصهيونية بوجهه
عام ، وتحول اليهود من عناصر غير منتجة وتجار ووسطاء (على الصعيد الاقتصادي
والثقافي) ، وعمال للرأسمالية الى « عمال منتجين » فوق « أرضهم » .

ومع ذلك .. فها هم مرة اخرى يلعبون في الشرق الاوسط دور العملاء لا
لرأسماليتهم الذاتية غير العدوانية نسبياً ، وانما للمصالح الغريسية الكبيرة
والاستعمار الجديد ، على الاقل هكذا ينظر اليهم المسلم العربي ، وله أسبابه
المعقولة .

وها هم مرة اخرى .. يشيرون كراهية جيرانهم عليهم .. جيران هم ضحايا الامبريالية فأي مصير هو هذا المصير الذي صار اليه اليهود ! فعندما كانوا عملاء رأسمالية شابة ، كانوا يشكلون على الأقل قوة تقدم وسوسط مجتمع اقطاعي . ولكنهم تخلوا عن هذا الدور عندما اصبحوا عملاء الرأسمالية الامبريالية الحالية ، وأبدوا استعدادهم لكي يكونوا كبش فداء مرة جديدة . هل سينتهي التاريخ باستكمال آخر حلقاته على هذا النحو ؟ هذا ما يمكن استخلاصه من انتصارات اسرائيل ، وان من واجب اصدقاء اسرائيل الحقيقيين ان يحثوا الاسرائيليين على النضال ضد مثل هذه النهاية .

ويبلغني للعرب من ناحيتهم ان يحذروا الوقوع في شرك السخفاء والحمقى من مدعي الاشتراكية ومعاداة الاستعمار . واننا نتمنى ان يفلحوا في مقاومة هذا الاتجاه ، وان يأخذوا العبر من هزيمتهم ، وان يعرفوا كيف يقيمون بعد حين بناء اشتراكياً تقدماً حقيقياً في الشرق الاوسط .

فهرست

الصفحة

٥	١ - تقديم
٩	٢ - اليهودية اللايهودية
٢٥	٣ - من هو اليهودي
٤١	٤ - الثورة الروسية والمشكلة اليهودية
٦٣	٥ - مناخ اسرائيل الروحي
٩٢	٦ - الحرب الاسرائيلية العربية
١١٦	٧ - فهرست

اليهودي الالايهودي

يعتبر اسحق دويتشر من أبرز كتّاب ومفكري العصر وله مؤلفات فكرية وسياسية عديدة كما تعتبر مؤلفاته عن الماركسية وأعلام الفكر الماركسي والتجربة السوفياتية أعمق ما كتب في هذه المواضيع .

وفي هذا الكتاب يحلل دويتشر المسألة اليهودية من مختلف وجوها بوصفه يهوديا ماركسيا استطاع ان يستوعب المشكلة وتمكن من كشف الطبيعة الرجعية للعقيدة الصهيونية والتركيب الاستعماري للاحتلال الصهيوني في فلسطين .

وربما كان ما كتبه دويتشر عن حرب حزيران من أعمق ما كتب في هذا الموضوع الهام ، بالنسبة لنا خصوصا ، لا من حيث اعتبار النصر الاسرائيلي العسكري كارثة تاريخية بالنسبة للصهيونية على المدى البعيد وحسب ، بل من حيث إنه أشار الى أن الطريق العربي للنصر على الصهيونية والاستعمار يمر عبر تحقيق تطور شامل في بنيان المجتمع العربي وتوحيد الحياة القومية من خلال استراتيجية ثورية جديدة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارثون - سابقية الجسر - ت ١ / ٨٠٢٩٠
بريقا - موكيال - بيروت - ص.ب. ١٧٥٤٦ بيروت

To: www.al-mostafa.com